

إِضَاءَاتٌ فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ

إعداد
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

الدَّرَرُ السَّنِيَّةُ

www.dorar.net



إِضَاءَاتٌ فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إضاءات في طريق العلم/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية -

ط٢، الظهران، ١٤٣٤هـ

١٧٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ١-٨-٩٠٤٠٧-٦٠٣-٩٧٨

١- الإسلام ٢- العلم ٣- الآداب الإسلامية أ- العنوان

١٤٣٤/١٨١٣

ديوي ٢١٩،٧

رقم الإيداع: ١٤٣٤/١٨١٣

ردمك: ١-٨-٩٠٤٠٧-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠٣٨٦٨٠١٢٣ / ف: ٠٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

الدرر السنية
www.dorar.net

إِضَاءَاتٌ فِي طُرُقِ رِيقِ الْعِلْمِ

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا سائرًا في رِكابِ العِلْمِ مُجْتَهِدًا
إِلَيْكَ مِنْ حِكْمِ الْأَخْيَارِ مُقْتَبَسٌ
إِضَاءَةٌ فِي طَرِيقِ العِلْمِ مِنْ (دُرِّ
يَحْدُوكَ عَزْمٌ إِلَى تَحْصِيلِ غَايَاتِ
فَلْتَسْتَنْزِرْ مِنْ هُدَاهُمْ بِالْإِضَاءَاتِ
سَنِيَّةٍ) تَرْتَجِي رَبَّ الْبَرِيَّاتِ

مقدمة

الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبده الكتابَ؛ ليخرجَ الناسَ بإذنه من الظُّلماتِ إلى النورِ، والصَّلَاةِ والسَّلَامِ على من أضاءَ اللهُ تعالى به دربَ الهدى، الموصِلِ إلى دارِ الشُّرورِ، ومَنْ شقَّ سبحانه بفجرِه ليلَ الجهلِ، وأبانَ طرائقَ الشُّرورِ.

أمَّا بعد:

فإنَّه لا يخفى على أحدٍ ما جاءَ في كتابِ اللهِ العظيمِ، وصحيحِ السنَّةِ، على صاحبها أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليمِ، عن فضلِ العلمِ وتعلُّمِه، وشرفِ أهله، والحثِّ على طلبِه.

والنصوصُ الواردةُ في ذلك، أكثرُ من أن تُحصَرَ، وأشهرُ من أن تُذكرَ.

والداعي إلى هذا الكتابِ عدَّةُ أمورٍ، منها:

- افتقَادُ المنهجِ الصَّحيحِ في التعلُّمِ.
- قصورُ مناهجِ التعليمِ.
- ضعفُ التحصيلِ العلميِّ.
- فتورُ الهممِ في طلبِ العلمِ وتعليمِه.
- الانفصامُ بين العلمِ والعملِ.

ومساهمةُ منا في تصحيحِ المسيرةِ، وإيضاحِ الطريقةِ؛ أحببنا أن نجتمع من توجيهاتِ السلفِ وقصصهم، وأقوالِ العلماءِ وتوجيهاتهم، من المتقدمين

والمتأخرين والمعاصرين، ما يضع المتعلم على طريق العلماء الربانيين. ف جاء هذا الكتاب دُرراً سنيّةً، وغُرراً بجميّةً، من عيونِ كلامِ السلف، وبعض أقاويل الخلف، تضيءُ لملتمسِ العلمِ طريقه، وتعيد لطلب العلم مجده وبريقه، وقد انقّيت من بين عددٍ من المصادر القديمة، والمراجع الحديثة. وانتظمت تحت اسم (إضاءات في طريق العلم)، أضاءت جوانب متنوّعة، وأسدت توجيهاتٍ متعدّدة، ولم يكن المراد من هذا الكتاب، الجمع وحصر ما في كل باب، فحسبنا هذا القدر الآن، واستقصاء ذلك مما يقصُر عنه الزّمان.

وتأتي هذه الطبعة الثانية، بعد نفاذ الأولى، والله تعالى الحمد في الآخرة والأولى، توجهت الهمة فيها إلى استدراك ما فات من أخطاء مطبعية، ولغوية وإملائية، مع إضافة زيادات حميدة، وقصص وأقوال سديدة.

وبلوغ الكمال مُحال، وشأنُ الكرام الأخيار، التماسُ الأعذار. والله نسأل أن ينفع مقتنيه بما فيه.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه ومقتفيه.

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنيّة

elmee@dorar.net

أولاً: إضاءات في فضل العلم وأهله

١- فضل العلم وشرف أهله:

(كان عطاءً بنُّ أبي زباج عبداً لامرأةٍ من مكَّة، أسود، أعور، أفسس، أشل، أعرج، ثم عمي .

جاءه سليمان بنُّ عبدالمكِّ، أميرُ المؤمنين، هو وابناه، فجلَّسوا إليه وهو يُصلِّي، فلمَّا صلَّى انقُتِل إليهم، وما زالوا يسألونه عن مناسك الحجِّ، وقد حوَّل قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنَيْه: قوما. فقاما، فقال: يا بني، لا تَبْيا في طلبِ العلم؛ فإنِّي لا أنسى ذُلَّنا بينَ يدي هذا العبدِ الأسود^(١).

وتفقَّه أبو بكر الكاسانيُّ على علاء الدين السمرقنديِّ، الذي زوَّجه ابنته فاطمة، الفقيهة، العالمة، قيل: (إنَّ سببَ تزويجِه بابنةِ شيخِه؛ أنَّها كانت من حسانِ النساءِ؛ وكانت قد حفظتِ التُّحفةَ تصنيفَ والدها، وطلبها جماعةٌ من ملوكِ بلادِ الروم، فامتنع والدها، فجاء الكاسانيُّ، ولزم والدها، واشتغل عليه، وبرع في علمي الأصول، والفروع، وصنَّف كتابَ البدائع وهو شرحٌ للتُّحفة، وعرضه على شيخِه فازداد فرحاً به، وزوَّجه ابنته، وجعل مهرها منه ذلك، فقال الفقهاءُ في عصرِه: شرح تحفته، وزوَّجه ابنته^(٢).

(رأى الرياشيُّ سقَّاءً على رقبتهِ قرينةً، فقال: لولا العلمُ لكنتُ مثلَ هذا. وكان أبوه عبداً سقَّاءً^(٣).

(١) ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (٣٧٥/٤٠)، بتصرف يسير.

(٢) ((الجواهر المضية)) للقرشي (٢٦/٤)، بتصرف يسير.

(٣) ((الحث على طلب العلم)) للعسكري (ص: ٥١-٥٢).

وقال أبو الأسود: (ليس شيء أعز من العلم، وذلك أن الملوک حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوک)^(١).

وقال حمدان الأصفهاني: (كنت عند شريك، فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند إلى الحائط، فسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم عاد، فعاد بمثل ذلك، فقالوا: أتستخف بأولاد الخلفاء؟ قال: لا، ولكن العلم أجل عند أهله من أن يضيعوه. قال: فجئت على زكبيته، ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم)^(٢).

زوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (كفى بالعلم شرقاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذمماً أن يتبرأ منه من هو فيه)^(٣).

(عن كميل النخعي، قال: أخذ بيدي علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه، فخرج بي إلى ناحية الجبانة، فلما أصحَرَ تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا، أتباع كل ناعق، مع كل ربح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق. يا كميل، العلم خير من المال: العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، ومنفعة المال تزول بزواله.

(١) ((الحث على طلب العلم)) للعسكري (ص: ٥٣).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).

(٣) ((تذكرة السامع والمتكلم)) لابن جماعة (ص: ١٠).

يا كَمِيلُ، مَحَبَّةُ الْعِلْمِ دَيْنٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلِ الْأَحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يا كَمِيلُ، مَاتَ خُزَّانُ الْمَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ، هَا! إِنَّ هَا هُنَا لِعِلْمًا جَمًّا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ - لَوْ وَجَدْتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلَى أَجْدُ لِقِنًا غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، يَسْتَعْمِلُهُ آلَةُ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَيَسْتَظْهِرُهُ بِحُجَجِ اللَّهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْعِمُهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ أَوْ مُنْقَادًا لِحَمَلَةِ الْحَقِّ وَلَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ، يَتَقَدِّحُ الشُّكَّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبُهَةٍ، لَا إِلَى هَوْلَاءٍ وَلَا إِلَى هَوْلَاءٍ، أَوْ مِنْهُوًّا بِاللَّدَّةِ، سَلَسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالِادِّحَارِ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَبَهًا بِهَذَا الْأَنْعَامِ السَّائِمَةُ! كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بَلَى، لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ بِحُجَّةِ اللَّهِ؛ إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا، أَوْ خَائِفًا مَغْمُورًا؛ لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ؛ وَكَمْ ذَا، وَأَيْنَ؟! أَوْلَيْكَ - وَاللَّهُ - الْأَقْلُونَ عَدَدًا؛ وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا؛ بِهِمْ يَحْفَظُ اللَّهُ حُجَجَهُ حَتَّى يُودِعُهَا نُظْرَاءَهُمْ؛ وَيَزْعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى بَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ؛ فَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَحْشَنَ الْمُتَرَفُونَ، وَأَنْسَوْا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِ أَرْوَاحِهَا مُعَلَّقَةً بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى.

يا كَمِيلُ، أَوْلَيْكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالِدَعَاةُ إِلَى دِينِهِ، آه آه! شَوْقًا إِلَيْهِمْ^(١).

(١) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٢/٨١ - ٨٢).

قال ابن تيمية: (لكن جماع الخير أن يستعين بالله - سبحانه - في تلقي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنه هو الذي يستحق أن يُسمى علماً، وما سواه إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً، وإما ألا يكون علماً وإن سُمي به، ولئن كان علماً نافعاً فلا بد أن يكون في ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ما يُعني عنه مما هو مثله وخير منه) (١).

قال ابن القيم: (كل صفة مدح الله بها العبد في القرآن فهي ثمرة العلم ونتيجته، وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته) (٢).

قال تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا} ❁ فلا تُطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً} [الفرقان: ٥١-٥٢].

قال ابن القيم معلماً - وتأمل كلامه -: (فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضاً، فإنَّ المنافقين لم يكونوا يُقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يُقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ٧٣]. ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.

والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم، ودعوة الخلق به إلى الله... (٣).

(١) ((مجموع الفتاوى)) (١٠/٦٦٤).

(٢) ((مفتاح دار السعادة لابن القيم)) (١/٣٧٩).

(٣) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/٢٧١، ٢٧٢).

٢ - حلاوة العلم ولذته:

(كَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ إِلَى الْحَجَّاجِ: انظُرْ لِي رَجُلًا، عَالِمًا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، عَارِفًا بِأَشْعَارِ الْعَرَبِ، وَأَخْبَارِهَا، أَسْتَأْنِسُ بِهِ، وَأُصِيبُ عِنْدَهُ مَعْرِفَةً. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ الشَّعْبِيَّ، وَكَانَ أَجْمَعَ أَهْلِ زَمَانِهِ.

قال الشعبي: فلم ألقَ واليًّا، ولا سُوقَةً^(١)، إلا وهو يحتاج إليّ، ولا أحتاج إليه، ما خلا عبدَ الملِكِ، ما أنشدته شعرًا، ولا حدَّثته حديثًا إلا وهو يزيدني فيه، وكنتُ ربَّما حدَّثته وفي يده اللقمة فيمسكها، فأقول: يا أميرَ المؤمنين، أسعْ طعامك، فإنَّ الحديثَ من ورائه، فيقول: ما تُحدِّثني به أوقع بقلبي من كلِّ لذةٍ، وأحلى من كلِّ فائدةٍ)^(٢).

وذكر ابنُ عساکر عن أبي الحسنِ الأديبِ، وهو يتحدَّث عن إمامِ الحرمینِ أبي المعالي الجوينيِّ، قال: (سمعتُه في أثناءِ كلامٍ يقول: أنا لا أنامُ ولا أكلُ عادةً، وإنما أنامُ إذا غلبني النومُ، ليلاً كان أو نهارًا، وأكلُ إذا اشتهيتُ الطعامَ، أيَّ وقتٍ كان. كانَ لذَّته وهُوهُ وتنزُّههُ في مُذاكرةِ العِلْمِ وطلبِ الفائدةِ من أيِّ نوعٍ كان، ولقد سمعتُ الشيخَ أبا الحسنِ عليَّ بنَ فضالٍ بنِ عليِّ المجاشعيِّ النَّحْوِيَّ القادِمَ علينا سنةَ تسعٍ وستينَ وأربعمئةٍ يقولُ: وقد قبَّله الإمامُ فخرُ الإسلامِ وقابلَهُ بالإكرامِ، وأخذَ في قِراءةِ النَّحوِ عليه، والتلمذة له بعدَ أن كانَ إمامَ الأئمَّةِ في وقتِهِ، وكانَ يحمله كلَّ يومٍ إلى دارِهِ يقرأُ عليه كتابَ (أكسيرِ الذَّهبِ في صناعةِ الأدبِ) من تصنيفِهِ، فكانَ يحكي يومًا ويقولُ: ما رأيتُ

(١) السُّوقَةُ عند العربِ خلافُ الملِكِ ((المصباح المنير)) للفيومي (س و ق).

(٢) ((معجم الأدباء)) لياقوت الحموي (٣٣/١).

عاشقًا للعلم - أي نوع كان - مثل هذا الإمام^(١).

قال ابن تيمية: (لا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات، و"اللذة" التي تبقى بعد الموت وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له، وهو الإيمان به... وأيضًا فنفس العلم به إن لم يكن معه حب له وعبادة له، بل كان مع حب لغيره كائنًا من كان، فإن عذاب هذا قد يكون من أعظم العذاب في الدنيا والآخرة)^(٢).

قال ابن القيم: (وحدثني شيخنا - يعني ابن تيمية - قال: ابتدأني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض. فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت، وسرت، قويت طبيعته، فدفعت المرض؟ فقال: بلى. فقلت له: فإن نفسي تسر بالعلم فتقوى به طبيعته، فأجد راحة. فقال: هذا خارج عن علاجنا...)^(٣).

قال ابن الجوزي: (ولقد كنت في حلاوة طلب العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل؛ لأجل ما أطلب وأرجو، كنت في زمان الصبا أخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمته، شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم!

(١) (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري) ((٢٨٣/١)).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) (١٦٢/١٤).

(٣) ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٧٠).

فَأَثْمَرْتُ ذَلِكَ عِنْدِي أَنِّي عُرِفْتُ بِكَثْرَةِ سَمَاعِي لِحَدِيثِ سَيْرِ الرَّسُولِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَحْوَالِهِ وَأَدَابِهِ، وَأَحْوَالِ أَصْحَابِهِ وَتَابِعِيهِمْ^(١).



(١) ((صيد الخاطر)) (ص: ٢٤٨).

ثانياً: إضاءات تربوية

١- أخلص، تُخلص:

(الإخلاصُ في طلبِ العلمِ شرطٌ تتابعيٌّ، لا ابتدائيٌّ، ومعنى ذلك أنّ طالبَ العلمِ يحرصُ على متابعةِ الإخلاصِ في نفسه، ولا يمتنعُ عن الطلبِ بدعوى أنّه لم يتحققْ لديهِ الإخلاصُ.

ومعنى الإخلاصِ فسره بعضُ أهلِ العلمِ، فقال ابنُ جماعة: هو حُسْنُ النيةِ في طلبِ العلمِ، بأنْ يقصدَ به وجهَ الله تعالى، والعملَ به، وإحياءَ الشريعةِ، وتنويرَ قلبه، وتجليّةَ باطنه، والقربَ من الله تعالى يومَ القيامةِ، والتعرضَ لما أعدَّ لأهله من رضوانه، وعظيمِ فضله.

قال سفيانُ الثوريُّ: ما عالجْتُ شيئاً أشدَّ عليّ من نيتي^(١).

قال ابن حجة - بكسرِ الحاءِ - الحمويُّ، ردّاً على زوجته:

وقائلة: أنفقت في الكُتُبِ ما حوتْ يدَاكِ مِنَ الأموالِ، قلتُ: دَعيني
لعلِّي أرى فيها كتاباً يدلُّني لأخذِ كتابي آمناً بيَميني^(٢)

وعن أبي عبد الله الرُّوذُبَارِيِّ، قال: (العلمُ موقوفٌ على العملِ، والعملُ موقوفٌ على الإخلاصِ، والإخلاصُ لله يُورثُ الفهمَ عن الله - عزَّ وجلَّ^(٣)).

وجلَّ^(٣).

(١) ((التأصيل في طلب العلم))، لبازمول.

(٢) ((الجواهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد)) ليوסף بن الحسن (ص: ٤٥).

(٣) (((اقتضاء العلم العمل)) للخطيب البغدادي)) (٣٢/١).

قال هشام الدستوائي: (والله ما أستطيع أن أقول: إنني ذهبت يوماً قطُّ
أطلبُ الحديثَ أريدُ به وجهَ الله عزَّ وجلَّ)^(١).

علَّق عليه الذهبيُّ بقوله: (والله ولا أنا، فقد كان السلفُ يطلبون العلمَ
لله، فنبَلُوا، وصاروا أئمةً يُقتدى بهم، وطلبه قومٌ منهم أولاً، لا لله، وحصلوه،
ثم استفقوا، وحاسبوا أنفسهم فجزَّهم العلمُ إلى الإخلاصِ في أثناءِ الطريقِ،
كما قال مجاهدٌ وغيره: طلبنا هذا العلمَ، وما لنا فيه كبيرُ نيةٍ، ثم رزقَ الله
النيةَ بعدُ. وبعضُهم يقولُ: طلبنا هذا العلمَ لغيرِ الله، فأبى العلمُ أن يكونَ إلا
لله. فهذا أيضاً حسنٌ، ثم نشره بنيةٍ صالحةٍ. وقومٌ طلبوه بنيةٍ فاسدةٍ لأجلِ
الدنيا، وليشئَ عليهم، فلهم ما نَوُوا)^(٢).

وقال الشافعيُّ: (وددتُ أنَّ الناسَ تعلَّموا هذا العلمَ - يعني كتبه - على
أن لا يُنسبَ إليَّ منه شيءٌ)^(٣).

(وقال حزملةٌ: سمعتُ الشافعيَّ يقولُ: وددتُ أنَّ كلَّ علمٍ يعلمُه الناسُ،
أُوجزُ عليه، ولا يحمَدوني.

وقال: ما ناظرتُ أحداً قطُّ إلا على النصيحة)^(٤).

جاء في ترجمة ابنِ جُرَيْجٍ أنَّ الوليدَ بنَ مُسلمٍ قال: (سألتُ الأوزاعيَّ
وسعيدَ بنَ عبدِ العزيزِ وابنَ جُرَيْجٍ: لمن طلبتُم العلمَ؟ كلُّهم يقولُ: لنفسي.

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٥٢/٧).

(٢) ((المصدر السابق)) (١٥٢/٧).

(٣) ((المصدر السابق)) (١٨/١٩).

(٤) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (١١٨/٩).

غيرَ ابنِ جريجٍ فإنه قال: طلبته للناس^(١).

قال الذهبيُّ تعليقًا على هذا الخبر: (قلتُ: ما أحسنَ الصدق! واليومَ تسألُ الفقيهَ الغيبيَّ: لمنَ طلبتَ العلمَ؟ فيبادِرُ ويقولُ: طلبتهُ لله. ويكذبُ، إنما طلبه للذُّنيا، ويا قلةَ ما عَرَفَ منه)^(٢).

وحكى الذهبيُّ عن أبي الحسنِ القطَّانِ قوله: (أُصِبتُ ببصري، وأظنُّ أنِّي عُوقِبتُ بكثرةِ كلامي أيامَ الرِّحلة)^(٣).

ثمَّ قال الذهبيُّ معلقًا: (صدقَ والله، فقد كانوا معَ حسنِ القصدِ، وصحةِ النيةِ غالبًا يخافونَ منَ الكلامِ، وإظهارِ المعرفةِ، واليومَ يُكثِّرونَ الكلامَ، معَ نقصِ العلمِ، وسوءِ القصدِ، ثمَّ إنَّ اللهَ يفضحُهم، ويلوحُ جهلهم، وهواهم، واضطرابهم فيما عِلِموه، فنسألُ اللهَ التوفيقَ والإخلاصَ)^(٤).

هذا في زمانه، فكيفَ في زماننا؟!

٢- التزكية أولاً:

قال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} *البقرة: ٢٨٢*

قال ابنُ كثيرٍ - رحمه الله -: ({وَاتَّقُوا اللَّهَ} أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٣٢٨/٦).

(٢) ((المصدر السابق)) (٣٢٨/٦).

(٣) ((المصدر السابق)) (٤٦٤/١٥).

(٤) ((المصدر السابق)) (٤٦٤/١٥، ٤٦٥).

أمره، واتركوا زجره، {وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الأنفال: ٢٩]، وكقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} [الحديد: ٢٨] (١).

عن أحمد بن الفتح قال: سمعتُ بشرَ بنَ الحارثِ يقول: (إذا أردتَ أن تُلقنَ العلمَ فلا تعص) (٢).

وعن الصَّحَّاحِ قال: (ما تعلم أحدُ القرآنَ فنسيه إلا بذنبٍ، ثمَّ قرأ: {مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠]، وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ من نسيانِ القرآنِ؟! (٣).

وقال سعيدُ بنُ الحدَّادِ: (سمعتُ سُحنونَ يقول: كنتُ إذا سألتُ ابنَ القاسمِ عن المسائلِ، يقولُ لي: يا سُحنونُ، أنتَ فارغٌ، إيَّيَّي لأحسُّ في رأسي دويًّا كدويِّ الرَّحَا - يعني: من قيامِ اللَّيْلِ).

قال: وكان قلماً يعرضُ لنا إلا وهو يقول: اتَّقُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ قَلِيلَ هَذَا الْأَمْرِ مَعَ تَقْوَى اللَّهِ كَثِيرٌ، وكثيره مع غيرِ تقوى الله قليلٌ (٤).

قال أبو العباسِ ابنُ قدامة: (فأما علمُ المعاملة، وهو علمُ أحوالِ القلبِ، كالخوفِ، والرجاءِ، والرِّضا، والصدقِ، والإخلاصِ، وغيرِ ذلك، فهذا العلمُ

(١) (تفسير ابن كثير) ((٧٢٧/١)).

(٢) ((الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع)) ((٢١٨/١)).

(٣) ((مختصر قيام الليل)) للمروزي ((١٧٨/١)).

(٤) ((سير أعلام النبلاء)) ط الرسالة ((١٢٢/٩)).

ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكائهم كسفيان، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإنما انحطت رتبة المسئين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات؛ لتشاغلهم بصور العلم، من غير أخذٍ على النفس أن تبُلغ إلى حقائقه، وتعمل بخفاياه^(١).

٣- صدق التوجه إلى الله:

قال ابن عبد الهادي: (قال ابن تيمية: ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلّم آدم وإبراهيم، علّمني. وكنْتُ أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى وأقول: يا معلّم إبراهيم فهّمّني. ويذكر قصة معاذ بن جبل، وقوله لمالك ابن يخامر لما بكى عند موته، وقال: إيّ لا أبكي على دنيا كنت أُصيّبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلّمهما منك. فقال: إنّ العلم والإيمان مكاتهما، من ابتغاهما وجدتهما، فاطلب العلم عند أربعة، فإن أعياك العلم عند هؤلاء، فليس هو في الأرض فاطبئه من معلّم إبراهيم)^(٢).

٤- العمل بالعلم:

(قال الشافعي: ليس العلم ما حُفظ، العلم ما نفع. ومن ذلك دوام السكينة، والوقار، والخشوع، والتواضع لله والخضوع. ومما كتب مالك إلى الرشيد: إذا علّمت علماً، فليُر عليك علمه، وسكنته،

(١) ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (ص: ٢٧).

(٢) ((العقود الدرية)) لابن عبد الهادي (ص: ٢٤-٢٥).

وسمته، ووقارُه، وحلمُه؛ لقوله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ))^(١).
 وقال عمرُ رضي اللهُ عنه: تعلَّموا العلمَ، وتعلَّموا له السكينةَ والوقارَ.
 وعن السلفِ: حقٌّ على العالم أن يتواضعَ لله، في سرِّه، وعلايته،
 ويحتسِرَ من نفسه، ويقفَ على ما أشكلَ عليه)^(٢).

وعن الحسنِ قال: (إنَّ كان الرجلُ إذا طلبَ العلمَ لم يلبثَ أن يُرى ذلك
 في تخشُّعه وبصره ولسانه ويده وزُهدِه، وإنَّ كان الرجلُ ليطلبُ البابَ من
 أبوابِ العلمِ، فيعملُ به، فيكونُ خيرًا له من الدُّنيا وما فيها، لو كانت له
 فجعلها في الآخرة)^(٣).

عن معروفِ بنِ فيروزَ الكرخيِّ، قال: (إذا أرادَ اللهُ بعددٍ خيرًا فتَحَّ له بابُ
 العملِ، وأغلقَ عنه بابُ الجدَلِ، وإذا أرادَ اللهُ بعددٍ شرًّا فتَحَّ له بابُ الجدَلِ،
 وأغلقَ عنه بابُ العملِ)^(٤).

قال عبدُاللهُ بنُ المُعتزِّ: (علمٌ بلا عملٍ كشجرةٍ بلا ثمرةٍ)^(٥).
 عن مالكِ بنِ دينارٍ، قال: (إنَّ العبدَ إذا طلبَ العلمَ للعملِ كسره علمُه،

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣). وقال الزيلعي في (تخریج
 الكشاف) (٧/٣): له طريق سالمة من الضعف والاضطراب وطريق آخر بإسناد جيد. وقال
 ابن حجر في (فتح الباري) ((١/١٩٢): إسناده مضطرب وله شواهد يتقوى بها.

(٢) ((تذكرة السامع والمتكلم)) لابن جماعة (ص: ١٥-١٦).

(٣) ((أخلاق العلماء)) للأجري (ص ٧١)

(٤) ((اقتضاء العلم العمل)) للخطيب البغدادي (٧٩).

(٥) ((المصدر السابق)) (٣٧).

وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فُجورًا أو فخرًا^(١).

عن أبي عبد الله الرُّوذَبَارِيِّ، قال: (مَنْ خَرَجَ إِلَى الْعِلْمِ يُرِيدُ الْعِلْمَ، لَمْ يَنْفَعَهُ الْعِلْمُ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى الْعِلْمِ يُرِيدُ الْعَمَلَ بِالْعِلْمِ، نَفَعَهُ قَلِيلُ الْعِلْمِ)^(٢).

قال ابنُ مُفْلِحٍ: (صَحَّحَ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَسْمَعُ الْبَابَ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ، فَيَعْلَمُهُ فَيَعْمَلُ بِهِ، فَيَكُونُ خَيْرًا لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)^(٣).

قال أبو الفرج ابنُ الجوزي:

(مَنْ عَرَفَ الشَّرْعَ كَمَا يَنْبَغِي، وَعَلِمَ حَالَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَحْوَالَ الصَّحَابَةِ، وَأَكَابِرَ الْعُلَمَاءِ؛ عَلِمَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَى غَيْرِ الْجَادَةِ، وَإِنَّمَا يَمْشُونَ مَعَ الْعَادَةِ، يَتَزَاوَرُونَ فَيَغْتَابُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَوْرَةَ أَخِيهِ، وَيَحْسُدُهُ إِنْ كَانَتْ نِعْمَةً، وَيَشْتُمُّ بِهِ إِنْ كَانَتْ مُصِيبَةً، وَيَتَكَبَّرُ عَلَيْهِ إِنْ نَصَحَ لَهُ، وَيَخَادِعُهُ لِتَحْصِيلِ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ الْعَثْرَاتِ إِنْ أَمَكَّنَ، هَذَا كُلُّهُ يَجْرِي بَيْنَ الْمُتَمَتِّعِينَ إِلَى الزُّهْدِ لَا الرَّعَاعِ).

فالأولى بمن عرف الله سبحانه، وعرف الشرع، وسير السلف الصالحين، الانقطاع عن الكل^(٤).

وعن أيوب السَّخْتِيَانِيِّ قال: (قال لي أبو قلابة: إذا أحدث الله لك علمًا، فأحدث له عبادةً، ولا يكن هُمُّك أن تحدث به).

(١) ((المصدر السابق)) (٣٢).

(٢) ((المصدر السابق)) (٣١).

(٣) ((الآداب الشرعية والمنح المرعية)) (٢/١٦٩).

(٤) ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩).

وقال الشَّعْبِيُّ: كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ، بِالْعَمَلِ بِهِ^(١). وقال سفيانُ الثوريُّ: (الْعِلْمُ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ)^(٢).

وقال الخطيبُ البغداديُّ: (إِنِّي مَوْصِيكَ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي طَلْبِهِ، وَإِجْهَادِ النَّفْسِ عَلَى الْعَمَلِ بِمَوْجِبِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ شَجْرَةٌ، وَالْعَمَلُ ثَمَرَةٌ، وَلَيْسَ يُعَدُّ عَالِمًا مَنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمِهِ عَامِلًا، وَقِيلَ: الْعِلْمُ وَالذُّمُّ، وَالْعَمَلُ مَوْلُودٌ، وَالْعِلْمُ مَعَ الْعَمَلِ، وَالرَّوَايَةُ مَعَ الدَّرَايَةِ، فَلَا تَأْتِسُ بِالْعَمَلِ، مَا ذُمَّتْ مُسْتَوْحِشًا مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا تَأْتِسُ بِالْعِلْمِ، مَا كُنْتَ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ، وَلَكِنْ اجْمَعْ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ قَلَّ نَصِيئُكَ مِنْهُمَا...)^(٣).

وقال أيضًا: (يَنْبَغِي لَطَالِبِ الْحَدِيثِ أَنْ يَتَمَيَّزَ فِي عَامَّةِ أُمُورِهِ عَنْ طَرَائِقِ الْعَوَامِّ، بِاسْتِعْمَالِ آثَارِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَا أَمَكَّنَهُ، وَتَوْطِيفِ السُّنَّةِ عَلَى نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١]^(٤).

❖ من علامات العلم النافع:

- (العملُ به).
- كراهيةُ التَّزْكِيَةِ والمدحِ والتكبرِ على الخلقِ.

(١) ((جامع بيان العلم)) لابن عبد البر (٧٠٩/١).

(٢) ((المصدر السابق)) (٧٠٧/١).

(٣) ((اقتضاء العلم العمل)) للخطيب البغدادي (ص: ١٤).

(٤) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (٢١٥/١).

- تكاثر تواضعك كلما ازددت علمًا.
- الهربُ من حبِّ التروُّسِ والشهرةِ والدُّنيا.
- هجرُ دعوى العلم.
- إساءةُ الظنِّ بالنفسِ، وإحسانه بالناسِ تنزهًا عن الوقوع بهم.
- وقد كان عبدُاللهِ بنُ المباركِ إذا ذَكَرَ أخلاقَ مَنْ سَلَفَ يُنشدُ:
- لا تعرضنَّ بذكرنا مع ذكركم ليس الصَّحيحُ إذا مشى كالمثعَدِ^(١)

٥- الأدب قبل الطلب:

- قال عبدُاللهِ بنُ المباركِ: (كانوا يطلبون الأدبَ ثمَّ العلمَ).
- وقال أيضًا: (كادَ الأدبُ يكونُ ثلثي الدِّينِ)^(٢).
- قال محمدُ بنُ سيرينَ: (كانوا يتعلَّمون الهدْيَ كما يتعلمون العلمَ)^(٣).
- وعن إبراهيمَ بنِ حبيبِ بنِ الشَّهيدِ، قال: قال لي أبي: (يا بني، إيتِ الفقهاءَ والعلماءَ، وتعلَّمْ منهم، وخذْ من أدبِهِم وأخلاقِهِم وهدْيِهِم، فإنَّ ذاك أحبُّ إليَّ لك من كثيرٍ من الحديثِ)^(٤).
- وقال أبو زكريَّا يحيى بنُ محمدِ العنبريُّ: (علمٌ بلا أدبٍ، كنارٍ بلا حطبٍ،

(١) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص: ٥١).

(٢) ((صفة الصفة)) لابن الجوزي (٤/١٤٥).

(٣) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (١/١٢١).

(٤) ((المصدر السابق)).

وأدبٌ بلا علمٍ، كجسمٍ بلا روحٍ^(١).

قال عيسى بن حمادٍ زغبةً: (سمعتُ الليثَ بنَ سعدٍ يقولُ -وقد أشرفَ على أصحابِ الحديثِ فرأى منهم شيئاً-: ما هذا؟ أنتم إلى يسيرٍ من الأدبِ أحوجُّ منكم إلى كثيرٍ من العلمِ)^(٢).

عن الحسين بن إسماعيلٍ، عن أبيه، قال: (كان يجتمعُ في مجلسِ أحمدَ زهاءَ خمسةِ آلافٍ -أو يزيدونَ نحوَ خمسمئةٍ- يكتبونَ، والباقونَ يتعلمونَ منه حُسنَ الأدبِ، والسَّمَتِ)^(٣).

وعن أبي بكرٍ بن المُطَوَّعِيِّ قال: (اختلفتُ إلى أبي عبدِاللهِ ثِنْتِي عَشْرَةَ سَنَةً، وهو يقرأُ (المسند) على أولادِهِ، فما كتبتُ عنه حديثاً واحداً، إنَّما كنتُ أنظرُ إلى هَدْيِهِ وَأَخْلَاقِهِ)^(٤).

❖ من خُلق الطالبِ وسَمَتِهِ:

قال الخطيبُ البغداديُّ: (يجبُ على طالبِ الحديثِ أن يتجنَّبَ اللعبَ، والعبثَ، والتبذُّلَ في المجالسِ بالسَّخْفِ، والضحكِ، والقهقهةِ، وكثرةِ التنادرِ، وإدمانِ المزاحِ والإكثارِ منه، فإنَّما يُستحازُ من المزاحِ يسيره وناذرُهُ وطريقُهُ الذي لا يخرجُ عن حدِّ الأدبِ وطريقةِ العلمِ، فأما متصلُّه وفاحشُهُ وسخيفُهُ وما أوغرَ منه الصدورَ وجلبَ الشرَّ؛ فإنَّه مذمومٌ، وكثرةُ المزاحِ والضحكِ

(١) ((المصدر السابق)) (١/١٢٢).

(٢) ((شرف أصحاب الحديث)) للخطيب البغدادي (ص: ١٢٢).

(٣) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١١/٣١٦).

(٤) ((المصدر السابق)).

يضع من القدر، ويزيل المروءة^(١).

وقال الشيخ بكر أبو زيد: (تحلّ بآداب النفس، من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكون الطائر، من الوقار والرزانة، وخفض الجناح، متحملاً ذلّ التعلم لعزّة العلم، ذليلاً للحق).

وعليه، فاحذر نواقض هذه الآداب، فإنها مع الإثم تُقيم على نفسك شاهداً على أنّ في العقل علة، وعلى حرمان من العلم والعمل به، فإنّك والخيلاء، فإنّه نفاق وكبرياء، وقد بلغ من شدة التوقّي منه عند السلف مبلغاً^(٢).

قال يونس الصديقي: (ما رأيت أعقل من الشافعي؛ ناظرته يوماً في مسألة، ثمّ افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة!

قلت -القائل الذهبي-: هذا يدلّ على كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه؛ فما زال النظراء يختلفون^(٣).

❖ من آداب طالب العلم:

أمّا المتعلّم: فآدابه ووظائفه كثيرة، منها:

- (تقدّم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق، ومذموم الأوصاف).

(١) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (١/٢٣٢).

(٢) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص: ١٠).

(٣) ((سير أعلام النبلاء)) ط الرسالة (١٠/١٦ - ١٧).

- أن يقللَ علائقَه من الاشتغالِ بالدُّنيا.
- ألاَّ يتكبرَ على العلم، ولا يتأَمَّرَ على المعلِّم.
- أن يحتزَّزَ في مبدأ الأمرِ عن الإصغاءِ إلى اختلافِ الناسِ.
- ألاَّ يدعَ الطالبُ فنًّا من العلوم المحمودَةِ، إلا وينظرُ فيه نظرًا يطلِّعُ به على مقصده.
- ألاَّ يأخذَ في فنٍّ دفعَةً، بل يُراعي الترتيبَ، ويتدبَّرُ بالأهمِّ.
- لا يخوضُ في فنٍّ، حتى يستوفيَ الذي قبله.
- أن يكونَ قصدُ المتعلِّمِ في الحالِ، تخليةً باطنه، وتجميلاً بالفضيلة^(١).



(١) ((أبجد العلوم)) لصديق حسن خان، بتصرف (١/١٢٤ - ١٢٧).

ثالثاً: إضاءات في أول الطريق

١- ستُّ ركائز أساسية:

قال بعضُ الأوائل: لا يتمُّ العلمُ إلا بستةِ أشياء: ذهنٍ ثاقبٍ، وزمانٍ طويلٍ، وكفايةٍ، وعملٍ كثيرٍ، ومعلِّمٍ حاذقٍ، وشهوةٍ، وكلِّما نقصَ من هذه الستةِ شيءٌ، نقصَ بمقداره من العلمِ.

وذكر الشهوة؛ لأنَّ النفسَ إذا اشتَّهت الشيءَ، كانت أسمحَ في طلبه، وأنشطَ لالتماسه.

وذكر الكفاية؛ لأنَّ التكسُّبَ، وتعدُّرَ المعاشِ مَقْطَعَةٌ... والحاجةُ تميِّتُ النفسَ.

وذكر المعلِّمَ الحاذقَ؛ لأنَّه إذا لم يكنْ حاذقاً، لم يَحُلِّ المتعلِّمُ منه بطائلٍ^(١).
وذكر ثقبَ الدَّهنِ؛ لأنَّه علةُ القبولِ؛ وسببُ الفهمِ.

وذكر كثرةَ العملِ؛ لأنَّ مَنْ لا يدأبُ في الطلبِ وقتَ الفراغِ، وقوةَ الشبابِ، قَطَعَتْه القواطعُ^(٢).

٢- من سار على الدرب وصل:

رحم الله الزرنوجيَّ حيثُ قال: (فلَمَّا رأيتُ كثيراً من طلابِ العلمِ في

(١) لم يَحُلِّ بطائلٍ أي: لم يظفر ولم يستفد منها كبيرَ فائدة ((لسان العرب)) لابن منظور (١٩١/١٤).

(٢) ((الحث على طلب العلم)) للعسكري، بتصريف (ص: ٤٧-٤٩).

زماننا، يجذون إلى العلم، ولا يصلون، ومن منافعِهِ، وثمراتِهِ، يُحرمون؛ لما أتهم
أخطؤوا طرائقه، وتركوا شرائطه، وكلُّ من أخطأ الطريق ضلَّ، ولا ينالُ
المقصودَ قلَّ أو جلَّ^(١).

قال شيخُ الحنابلةِ في عصره ابنُ بدران: (اعلم أن كثيراً من الناس يقضون
السنينَ الطوالَ في تعلُّمِ العلم، بل في علمٍ واحدٍ، ولا يحصلون منه على
طائلٍ، وربما قضوا أعمارهم فيه، ولم يرتقوا عن درجةِ المبتدئين، وإنما يكونُ
ذلك لأحدٍ أمرين:

أحدهما: عدمُ الذكاءِ الفطريِّ، وانتفاءُ الإدراكِ التصوريِّ، وهذا لا كلامَ
لنا فيه، ولا في علاجه. والثاني: الجهلُ بطرقِ التعلُّمِ)^(٢).

قال بهاءُ الدينِ ابنُ النَّحاسِ الحلبيُّ النَّحويُّ:

اليومَ شيءٌ وغداً مثلهُ من نُحِبِ العلمَ الّتي تُلتقطُ
يُحصِّلُ المرءُ بها حكمةً وإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقْطِ^(٣)

٣- التلقّي من أفواه العلماء:

ما أحسنَ توجيهَ الزرنوجيِّ لطالبِ العلمِ حينَ قال:

(ينبغي لطالبِ العلمِ، أن لا يختارَ نوعَ العلمِ بنفسه، بل يفوضُ أمره إلى
الأستاذ؛ فإنَّ الأستاذَ قد حصلَ له التجاربُ في ذلك، فكانَ أعرفَ بما

(١) (تعليم المتعلم) للزرنوجي (ص: ٢).

(٢) ((المدخل إلى مذهب الإمام أحمد)) لابن بدران (١/٢٦٥).

(٣) ((بغية الوعاة)) للسيوطي (١/١٤).

ينبغي لكلِّ أحدٍ، وما يليقُ بطبيعته، وكان الشيخُ.. برهانُ الدين يقولُ رحمه الله: كان طلبُ العلمِ في الزمنِ الأولِ يُقوِّضونَ أمرهم في التعلمِ إلى أستاذهم، فكانوا يصلون إلى مقصودهم، ومرادهم، والآنَ يختارون بأنفسهم، فلا يحصلُ مقصودهم من العلمِ، والفقهِ^(١).

قال الشيخُ بكر أبو زيد:

(الأصلُ في الطلبِ، أن يكونَ بطريقِ التلقينِ، والتلقِّي عن الأساتيدِ، وقد قيل: مَنْ دخلَ في العلمِ وحده؛ خرجَ وحده. أي: مَنْ دخلَ في طلبِ العلمِ بلا شيخٍ؛ خرجَ منه بلا علمٍ؛ إذ العلمُ صنعةٌ، وكلُّ صنعةٍ تحتاجُ إلى صانعٍ، فلا بدَّ إذا لتعلمها من مُعلمها الحاذقِ.

وكان أبو حيانَ كثيراً ما يُنشدُ:

يظنُّ العَمْرُ أنَّ الكُتُبَ تَهْدِي
وما يَدْرِي الجهولُ بأنَّ فيها
إذا رُمَتِ العلومَ بغيرِ شيخٍ
وتلتبسُ الأمورُ عليكِ حتَّى
أخافَ فهمَ لإدراكِ العلومِ
غوامضَ حيرتَ عقلَ الفهيمِ
ضللتَ عن الصِّراطِ المستقيمِ
تصيرَ أضلَّ من ثوما الحكيمِ^(٢)

ذَكَرَ الشَّاطِئِيُّ فِي مَعْرُضِ حَدِيثِهِ عَنِ اتِّفَاقِ النَّاسِ عَلَى افْتِقَارِ الْجَاهِلِ إِلَى الْمَعْلَمِ، قَوْلَ بَعْضِهِمْ: (إِنَّ الْعِلْمَ كَانَ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْكُتُبِ، وَصَارَتْ مَفَاتِحُهُ بِأَيْدِي الرِّجَالِ).

(١) ((تعليم المتعلم)) (ص: ١٠).

(٢) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد، بتصرف (ص: ٢٢-٢٤).

قال الشاطبي معلماً على ذلك: (وهذا الكلام يقضي بأن لا بدَّ في تحصيله من الرجال؛ إذ ليس وراء هاتين المرتبتين مرمى عندهم، وأصلُّ هذا في الصحيح: ((إنَّ الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء...)) الحديث^(١)، فإذا كان كذلك؛ فالرجال هم مفاتحه بلا شك^(٢).

٤ - انظر.. عن تأخذ دينك؟

قال الزرنوجي: (يَبْغِي أَنْ يَخْتَارَ الْأَعْلَمَ، وَالْأَوْعَى، وَالْأَسَنَّ، كَمَا اخْتَارَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَمَّادُ بْنُ سَلِيمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ، بَعْدَ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ، وَقَالَ: وَجَدْتُهُ شَيْخًا، وَقَوْرًا، حَلِيمًا، صَبُورًا. وَقَالَ: ثَبْتُ عِنْدَ حَمَادِ بْنِ سَلِيمَانَ فَنَبْتُ)^(٣).

قال مالك: (لا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ مِنْ أَرْبَعَةٍ، وَيُؤْخَذُ مِنْ سِوَى ذَلِكَ: لَا يُؤْخَذُ مِنْ سَفِيهِ مَعْلُنٍ بِالسَّفَهَةِ، وَإِنْ كَانَ أَرَوَى النَّاسِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ كَذَّابٍ، يَكْذِبُ فِي أَحَادِيثِ النَّاسِ، إِذَا جُرِّبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُتَّهَمُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا مِنْ صَاحِبِ هَوَى يَدْعُو النَّاسَ إِلَى هَوَاهُ، وَلَا مِنْ شَيْخٍ لَهُ فَضْلٌ، وَعِبَادَةٌ، إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ مَا يُحَدِّثُ)^(٤).

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) ((الموافقات)) للشاطبي (١/١٤٠).

(٣) ((تعليم المتعلم)) للزرنوجي (ص: ٦).

(٤) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (١/٢١٢).

قال ابن جماعة: (يَبْغِي للطالب أَنْ يقدِّمَ النَّظَرَ، ويستخيرَ اللهَ فيمن يأخذُ العلمَ عنه، ويكتسبَ حسنَ الأخلاقِ، والآدابِ منه، وليكنَ إن أمكنَ من كملت أهليتهُ، وتحققت شفقتهُ، وظهرت مروءتهُ، وعُرفت عفتهُ، واشتهرت صيانهُ، وكان أحسنَ تعليمًا، وأجودَ تفهيمًا، ولا يرغبُ الطالبُ في زيادةِ العلمِ، معَ نقصٍ في ورعٍ، أو دينٍ، أو عدمِ خُلُقٍ جميلٍ، فعن السلفِ: (هذا العلمُ دينٌ، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم)^(١).

قال جعفر بن محمد: (إذا رأيتم العالمَ محبًّا لدُنياه؛ فاتَّهَمُوهُ على دينكم، فإنَّ كلَّ محبٍّ لشيءٍ يحوطُ ما أحبَّ)^(٢).

قال الذهبي: (قرأت بخطَّ الشيخِ الموفقِ قال: سمعنا درسه -أي: ابن أبي عسرون- مع أخي أبي عمرَ وانقطعنا، فسمعتُ أخي يقولُ: دخلتُ عليه بعدُ، فقال: لِمَ انقطعتم عني؟ قلتُ: إنَّ أناسًا يقولون: إنَّك أشعريٌّ، فقال: واللهِ ما أنا أشعريٌّ. هذا معني الحكاية)^(٣).

٥- اتباع خير القرون:

أوصى الإمامُ أبو عمرو الأوزاعيُّ تلميذه بقیةَ بن الوليدِ بوصيةً، فقال: (يا بقیة، العلمُ ما جاءَ عن أصحابِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وما لم يَجِئْ عن أصحابِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فليسَ بعلمٍ، يا بقیة لا تذكُرْ أحدًا من أصحابِ محمدٍ نبيك صلى الله عليه وسلم إلا بخيرٍ، ولا أحدًا من

(١) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة (ص: ٨٥).

(٢) (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر (٦٧٠/١).

(٣) (سير أعلام النبلاء) للذهبي (١٢٩/٢١).

أُمَّتِكَ، وَإِذَا سَمِعْتَ أَحَدًا يَقَعُ فِي غَيْرِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَقُولُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ^(١).
 قَالَ مَالِكٌ وَقَدْ ذُكِرَ لَهُ كِتَابُهُ الْمَوْطَأُ: (فِيهِ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَوْلُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَرَأْيُهُمْ، وَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِرَأْيِي عَلَى الْاجْتِهَادِ، وَعَلَى مَا أَدْرَكْتُ عَلَيْهِ أَهْلَ الْعِلْمِ بِلَدِينَا، وَلَمْ أَخْرُجْ عَنْ جَمَلَتِهِمْ إِلَى غَيْرِهِ)^(٢).

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: (إِذَا كَانَ فِي الْمَسْأَلَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثٌ؛ لَمْ نَأْخُذْ فِيهَا بِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مَنْ بَعْدَهُمْ خِلَافَهُ، وَإِذَا كَانَ فِي الْمَسْأَلَةِ عَنِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلٌ مُخْتَلَفٌ، نَخْتَارُ مِنَ أَقْوَابِلِهِمْ، وَلَمْ نَخْرُجْ عَنْ أَقْوَابِلِهِمْ إِلَى قَوْلِ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا عَنِ الصَّحَابَةِ قَوْلٌ، نَخْتَارُ مِنَ أَقْوَالِ التَّابِعِينَ)^(٣).

قَالَ الشَّيْخُ بَكْرُ أَبُو زَيْدٍ: (كَانَ سَلْفِيًّا عَلَى الْجَادَّةِ، طَرِيقَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ مَنْ قَفَا أَثَرَهُمْ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الدِّينِ، مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالْعِبَادَاتِ، وَنَحْوِهَا، مَتَمِيزًا بِالتَّزَامِ آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَوْظِيْفِ السَّنَنِ عَلَى نَفْسِكَ، وَتَرْكِ الْجِدَالِ، وَالْمِرَاءِ، وَالخَوْضِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ، وَمَا يَجْلِبُ الْإِثَامَ، وَيَصُدُّ عَنِ الشَّرْعِ)^(٤).

(١) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (١/٧٦٩).

(٢) ((ترتيب المدارك)) للقاضي عياض (٢/٧٣).

(٣) ((المسودة)) لآل تيمية (١/٢٧٦).

(٤) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص: ٨).

❖ طبقات العلم:

روى نوحُ الجامعُ، عن أبي حنيفةَ أنَّه قال: (ما جاءَ عن الرسولِ صلى اللهُ عليه وسلم، فعلى الرأسِ والعينِ، وما جاءَ عن الصحابةِ اخترنا، وما كان من غيرِ ذلك، فهم رجالٌ ونحن رجالٌ)^(١).

وقال الشافعيُّ: (العلمُ طبقاتٌ:

الأولى: الكتابُ والسنةُ، إذا ثبتتِ السنةُ.

ثم الثانيةُ: الإجماعُ، فيما ليس فيه كتابٌ ولا سنةٌ.

والثالثةُ: أن يقولَ بعضُ أصحابِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، ولا نعلمُ له مخالفاً منهم.

والرابعةُ: اختلافُ أصحابِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، ورضي عنهم.

والخامسةُ: القياسُ على بعضِ هذه الطبقاتِ، ولا يُصارُ إلى شيءٍ غيرِ الكتابِ والسنةِ، وهما موجودان، وإنما يُؤخذُ العلمُ من أعلى)^(٢).

(قال الرَّبِيعُ: سمعتُ الشافعيَّ يقولُ، وسأله رجلٌ عن مسألةٍ فقال: يُروى عن النبيِّ أنَّه قال كذا وكذا. فقال له السائلُ: يا أبا عبدِالله، أتقولُ بهذا؟ فارتعدَ الشافعيُّ، واصفرَّ، وحالَ لونه، وقال: وَيْحَكَ، أيُّ أرضٍ تُقْلني وأيُّ سماءٍ تُظْلني، إذا رويْتُ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم شيئاً فلم أقلَّ به؟

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٤٠١/٦).

(٢) ((المدخل إلى السنن الكبرى)) للبيهقي (١١٠/١).

نَعَمْ، على الرأسِ والعينِ^(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: (إِيَّاكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةٍ، لَيْسَ لَكَ فِيهَا إِمَامٌ)^(٢).

وقال ابنُ رَجَبٍ: (وفي زماننا يتعینُ كتابةُ كلامِ أئمةِ السلفِ المقتدى بهم إلى زمنِ الشافعيِّ، وأحمدَ، وإسحاقَ، وأبي عُبيدٍ، وليكنِ الإنسانُ على حذرٍ مما حدَّث بعدهم؛ فإنَّه حدَّثت بعدهم حوادثٌ كثيرةٌ، وحدثَ من انتسبَ إلى متابعةِ السنةِ والحديثِ، وهو أشدُّ مخالفةً لها؛ لشذوذه عن الأئمةِ، وانفرادِهِ عنهم بفهمٍ يفهمه، أو يأخذ ما لم يأخذ به الأئمةُ من قبله)^(٣).

وقال أيضاً: (وفي كلامِهِم -أي: السلفِ- كفايةٌ وزيادةٌ، فلا يُوجدُ في كلامٍ من بعدهم من حقٍّ، إلا وهو في كلامِهِم موجودٌ، بأوجزٍ لفظٍ، وأخصرٍ عبارةٍ، ولا يوجدُ في كلامٍ من بعدهم من باطلٍ، إلا وفي كلامِهِم ما يُبينُ بطلانَهُ لمن فهمه وتأمَّلَهُ، ويوجدُ في كلامِهِم من المعاني البديعةِ، والمآخذِ الدقيقةِ، ما لا يَهتدي إليه من بعدهم، ولا يُلْمُ به، فمن لم يأخذِ العلمَ من كلامِهِم فاتَهُ ذلك الخَيْرُ كُلُّهُ، مع ما يقعُ في كثيرٍ من الباطلِ، متابعةً لمن تأخَّر عنهم)^(٤).

٦- الزم قولاً.. ولا تتشوش:

على الطالبِ (أن يحذرَ في ابتداءِ أمرِهِ من الاشتغالِ في الاختلافِ بينَ

(١) ((طبقات الشافعية الكبرى)) للسبكي (١٣٨/٢).

(٢) ((مناقب الإمام أحمد)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨).

(٣) ((بيان فضل علم السلف على علم الخلف)) لابن رجب، بتصرف (ص: ٦٩).

(٤) ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

العلماء، أو بينَ الناسِ مطلقًا في العقلياتِ، والسمعياتِ؛ فإنَّه يُحَيِّرُ الذَّهْنَ ويدهشُ العقلَ، بل يتقنُ أولاً كتابًا واحدًا، في فنٍّ واحدٍ، أو كتبًا في فنونٍ إن كان يحتملُ ذلك.

أمَّا إذا تحققتْ أهليَّةُ المتعلِّمِ، وتأكدتْ معرفتهُ، فالأوَّلَى أن لا يدعَ فنًّا من العلومِ الشرعيَّةِ إلا نظرَ فيه، فإن ساعده طولُ العمرِ على التبحُّرِ فيه، فذاك، وإلا فقد استفادَ منه ما يخرجُ به من عداوةِ الجهلِ بذلك العلمِ، ويعتني من كلِّ علمٍ بالأهمِّ فالأهمِّ، ولا يغفلنَّ عن العملِ الذي هو المقصودُ بالعلمِ^(١).

٧- خطوة.. خطوة:

التدرُّجُ في طلبِ العلمِ وحفظه أمرٌ مهمٌّ، فلا يستعجل طالبُ العلمِ الثمرةَ، فيعاقبَ بالحرمانِ، وما يأتي سريعًا يذهبُ سريعًا.

قال الزهريُّ ليونسَ بنِ يزيدَ: (يا يونسُ، لا تكابرِ العلمَ؛ فإنَّ العلمَ أوديةٌ، فأئبها أخذتَ فيه، قطعَ بك قبلَ أن تبُلَّغَه، ولكن خُذْه معَ الأيامِ والليالي، ولا تأخذِ العلمَ جملةً؛ فإنَّ من رامَ أخذه جملةً ذهبَ عنه جملةً، ولكن الشيءُ بعدَ الشيءِ معَ الليالي والأيامِ)^(٢).

(عن الحسنِ بنِ عيسى قال: سمعتُ أبا بكرِ بنَ عيَّاشٍ يقولُ لابنِ المبارك: قرأتُ القرآنَ على عاصمِ بنِ أبي النُّجودِ فكانَ يأمُرني أن أقرأَ عليه كلَّ يومٍ آيةً لا أزيدُ عليها، ويقولُ: إنَّ هذا أثبتُ لك، فلم آمنُ أن يموتَ

(١) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة، بتصرف (ص: ١١٦-١٢٠).

(٢) (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر (١/٤٣١).

الشيخ قبل أن أفرغ من القرآن، فما زلت أطلب إليه حتى أذن لي في خمس آيات كل يوم^(١).

قال ابن عبد البر: (طلب العلم درجات، ومناقل، ورتب، لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامداً ضل، ومن تعداه مجتهداً زل)^(٢).

قال الشيخ بكر أبو زيد: (فأمامك أمور لا بد من مراعاتها في كل فن تطلبه:

- حفظ مختصر فيه.
- ضبطه على شيخ متقن.
- عدم الاشتغال بالمطولات وتفاريق المصنفات قبل الضبط والإتقان لأصله.
- لا تنتقل من مختصر إلى آخر بلا موجب؛ فهذا من باب الضجر.
- اقتناص الفوائد والضوابط العلمية.
- جمع النفس للطلب والتزقي فيه، والاهتمام والتحرق للحصول والبلوغ إلى ما فوقه^(٣).

❖ خذ بقدر ما تطيق:

قال الخطيب البغدادي: (ولا يأخذ الطالب نفسه بما لا يطيقه، بل

(١) ((طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٤٢/١).

(٢) ((المصدر السابق)) (١١٢٩/٢).

(٣) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص: ١٨-١٩).

يقتصرُ على اليسير الذي يضبطه، ويُحْكِمُ حفظَه ويُثَبِّتُه.

قال إسماعيل بن عُليَّة: كنتُ أسمعُ منْ أيُّوبَ خمسةً، ولو حدَّثني بأكثر من ذلك ما أردتُ).

قال سُفيانُ الثوريُّ: كنتُ آتي الأعمشَ ومنصورًا، فأسمعُ أربعةَ أحاديثٍ، خمسةً، ثم أنصرفُ، كراهةً أن تكثُرَ وتغلَّت.

وعن شُعبة قال: كنتُ آتي قتادةً، فأسأله عن حديثين، فيحدِّثني، ثم يقول: أزيدُك؟ فأقول: لا، حتى أحفظهما وأتقنهما^(١).

٨- ابدأ بالأوّلَى، فالأوّلَى:

من توجيهاتِ أبي العباسِ بنِ قدامةِ المقدسيِّ لطالبِ العلمِ المبتدئِ، قوله:

(ابتدئْ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ثم بسنَّةِ رسوله صلى اللهُ عليه وسلَّم، ثم بعلومِ القرآنِ مِنَ التفسيرِ ومن ناسخٍ ومنسوخٍ، ومحكمٍ ومتشابهٍ، إلى غير ذلك، وكذلك في السنة، ثم اشتغلْ بالفروعِ وأصولِ الفقه، وهكذا بقيَّة العلومِ على ما يتسعُ له العمرُ، ويساعدُ فيه الوقتُ، ولا تستغرقِ عمركَ في فنٍّ واحدٍ منها؛ طلبًا للاستقصاءِ؛ فإنَّ العلمَ كثيرٌ والعمرَ قصيرٌ)^(٢).

قال الزَّبيديُّ نقلًا عن صاحبِ الذريعةِ: (يجبُ أن لا يخوضَ طالبُ العلمِ في فنٍّ حتى يتناولَ مِنَ الفنِّ الذي قبله على الترتيبِ بُلغته، ويقضي منه

(١) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب، بتصرف (١/٣٥٤-٣٥٦).

(٢) ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (ص: ٣٠-٣١).

حاجته، فازدحام العلم في السمع مضلة الفهم... فيجب أن يقدم الأهم فالأهم، من غير إخلال في الترتيب، وكثير من الناس منعوا الوصول لترتيبهم الأصول؛ وحقه أن يكون قصده من كل علم يتحرّاه، التبليغ به إلى ما فوقه، حتى يبلغ النهاية^(١).

(قال أبو بكر الخلال: أخبرني الحسن بن الهيثم، قال: سمعت أبا جعفر شامط القطيعي يقول: دخلت على أبي عبد الله فقلت: أتوضأ بماء النّورة؟ فقال: ما أحب ذلك، قلت: أتوضأ بماء الباقلاء؟ قال: ما أحب ذلك، قلت: أتوضأ بماء الورد؟ قال: ما أحب ذلك، قال: فممت فتعلق بثوبي ثم قال: إيش تقول إذا دخلت المسجد؟ فسكت! فقال: وإيش تقول إذا خرجت من المسجد؟ فسكت! فقال: اذهب فتعلم هذا)^(٢).

(عن ابن وهب، قال: قيل لمالك: ما تقول في طلب العلم؟

قال: حسن جميل، لكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي، فالزمه)^(٣).

٩- مراحل التعلم:

(كان المأمون يوصي بعض بنيه، فيقول: اكتب أحسن ما تسمع، واحفظ أحسن ما تكتب، وحدّث بأحسن ما تحفظ)^(٤).

(١) ((إتحاف السادة المتقين)) للزيدي، بتصرف (١/٥٤٣).

(٢) ((طبقات الحنابلة)) لابن رجب (١/٤١).

(٣) ((سير أعلام النبلاء)) (٨/٩٧).

(٤) ((تقييد العلم)) للخطيب البغدادي (ص: ١٤١).

وقال ابن المبارك: (أَوَّلُ الْعِلْمِ النِّيَّةُ، ثُمَّ الْإِسْتِمَاعُ، ثُمَّ الْفَهْمُ، ثُمَّ الْحِفْظُ، ثُمَّ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّشْرُ)^(١).

١٠ - أدوات تحصيل العلم:

أ - السَّماع والكتابة:

قال بعضهم: (كنتُ عندَ بعضِ العلماءِ، فكنتُ أكتبُ عنه بعضًا، وأدعُ بعضًا، فقال لي: اكتبْ كلَّ ما تسمعُ، فإنَّ أحسنَ ما تسمعُ خيرٌ من مكانه أبيض)^(٢).

قال الشيخُ عبدُالكريمِ الخضير: (التجربةُ أثبتتْ أنَّه كلما سهلَ الحصولُ على الكتابِ، أو على المعلومةِ ضعفتِ الإفادَةُ.

خشي العلماءُ على التحصيلِ من جرَّاءِ الطباعةِ؛ فأفنى علماءُ الأزهرِ بتحريمِ طباعةِ الكتبِ الشرعيةِ، فأذِنوا بطباعةِ كتبِ التاريخِ والأدبِ واللغةِ وغيرها، أمَّا الكتبُ الشرعيةُ فلا، وكان طالبُ العلمِ في السابقِ إذا احتاجَ إلى كتابٍ، اضطرَّ إلى نسخه.

ومعاناةِ الكتابةِ أفضلُ من القراءةِ مرارًا، فأنت إذا احتجتَ إلى كتابٍ، لا بدَّ أنْ تكتبَ الكتابَ، أو تستعيروه، وتنسخه، أو تُدوِّنَ ما يهْمُك منه، هل هذا مثل أن تذهبَ إلى مكتبةٍ وتشتريَ كتابًا، وترصَّه مع إخوانه في الأدرج؟!)^(٣).

(١) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٤٧٦/١).

(٢) ((الحيوان)) للحافظ (٥٨/١).

(٣) ((كيف يبني طالب العلم مكتبته)) للخضير.

قال القُرَيْبِيُّ: (كنتُ معَ محمدِ بنِ إسماعيلَ بمنزله ذاتَ ليلةٍ، فأحصيتُ عليه أَنَّهُ قامَ، وأسْرَجَ، يستذكرُ أشياءَ يعلِّقُها في ليلةٍ، ثمانِ عشرةَ مرَّةً)^(١).

وحكى الحميديُّ عن الشافعيِّ لما كانا بمصرَ، أَنَّهُ كان يخرجُ في بعضِ الليالي، فإذا مصباحُ منزلِ الشافعيِّ مُسْرَجٌ، فيصعدُ إليه، فإذا قرطاسٌ ودواةٌ، قال الحميديُّ: فأقولُ: مَهْ يا أبا عبدِالله! فيقولُ: (تفكرتُ في معنَى حديثٍ -أو في مسألةٍ- فحفتُ أنْ يذهبَ عليَّ، فأمرتُ بالمصباحِ، وكتبتُهُ)^(٢).

وفي ترجمة أبي الفرج ابنِ الجوزيِّ صاحبِ التصانيفِ الكثيرةِ أَنَّهُ: (كانَ لا يضيعُ من زمانه شيئاً، يكتبُ في اليومِ أربعَ كراريسَ، ويرتفعُ لَهُ كلَّ سنةٍ من كتابتِهِ، ما بينَ خمسينَ مجلداً إلى ستينَ)^(٣).

وقال سبطُه: (إِنَّهُ سمعَهُ على المنبرِ في آخرِ عمرِهِ، يقولُ: كتبتُ بإصبعي هاتينِ، أَلْفِي مجلدةً)^(٤).

فائدة:

❖ الكتب الجامعة للفوائد:

دَوْنُ كثيرٍ مِنَ العلماءِ فوائدهم في كتبٍ مُفردةٍ، مثل:

١- (الفنون)، لابنِ عَقيلٍ، وهو من أضخمِ الكتبِ.

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٢/٤٠٤).

(٢) ((آداب الشافعي ومناقبه)) لابن أبي حاتم (ص: ٤٤، ٤٥).

(٣) ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (١/٤١٢).

(٤) ((المصدر السابق)) (١/٤١٠).

- ٢- (الفوائد العونية)، للوزير ابن هبيرة.
- ٣- (صيد الخاطر)، لابن الجوزي.
- ٤- (قيد الأوابد)، في (٤٠٠ مجلد)، للدعولي.
- ٥- (عيون الفوائد)، في (٦ أسفار)، لابن النجار.
- ٦- (بدائع الفوائد)، و(الفوائد)، لابن القيم.
- ٧- (التذكرة)، في (٥٠ مجلدا)، للكندي.
- ٨- (جمع الفوائد ومنبع الفرائد)، في نحو (١٠٠ مجلد)، للمقريزي كالتذكرة له.

٩- تذكرة السيوطي في أنواع الفنون في (٥٠ مجلدا)، وغيرها كثير.

ب- الحفظ:

قال العسكري: (الحفظ لا يكون إلا مع شدة العناية، وكثرة الدرس، وطول المذاكرة. والمذاكرة حياة العلم، وإذا لم يكن درس، لم يكن حفظ، وإذا لم تكن مذاكرة، قلت منفعة الدرس، ومن عول على الكتاب، وأخل بالدرس والمذاكرة، ضاعت ثمرة سعيه، واجتهاده في طلب العلم...

وأنشد النظم قول محمد بن البشير:

أما لو أعيا كل ما أسمع	وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد سمعت	لقل هو العالم المصقع
ولكن نفسي إلى كل شيء	من العلم تسمعه تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت	ولا أنا من جمعه أشبع

وأحضر بالصمت في مجلسي وعلمي في الكتب مستودع
 ومن يك في علمه هكذا يكن دهره القهقري يرجع
 إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكُتب لا ينفع
 وكان الخليل بن أحمد يقول: اجعل ما في كتابك رأس المال، وما في
 صدرك للنفقة.

وقال الزهري: إن الرجل ليطلب، وقلبه شعب من الشعاب، ثم لا يلبث
 أن يصير وادياً، ولا يوضع فيه شيء إلا التهمه.

يريد أن أول الحفظ شديد، يشق على الإنسان، ثم إذا اعتاده سهل،
 ومصدق ذلك ما أخبر به الشيخ أبو أحمد عن الصولي عن الحارث ابن
 أسامة قال: كان العلماء يقولون: كل وعاء أفرغت فيه شيئاً فإنه يضيق، إلا
 القلب، فإنه كلما أفرغ فيه اتسع.

وينبغي للدارس أن يرفع صوته في درسه، حتى يُسمع نفسه، فإن ما سمعته
 الأذن، رسخ في القلب؛ ولهذا كان الإنسان أوعى لما يسمعه منه لما يقرأه.
 وحكي عن أبي حامد أنه كان يقول لأصحابه: إذا درستم فارتفعوا
 أصواتكم؛ فإنه أثبت للحفظ؛ وأذهب للنوم.

وكان يقول: القراءة الخفية للفهم، والرفيعة للحفظ والفهم.

وكان ابن الفرات لا يترك كل يوم إذا أصبح، أن يحفظ شيئاً وإن قل^(١).

(وقال الخليل بن أحمد: تكثر من العلم لتعرف، وتقل منه لتحفظ.

(١) ((الحث على طلب العلم)) للعسكري، بتصرف (ص: ٦٧-٧٧).

وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصِّدْرِ^(١).

❖ للحفظ طريقتان، ولكلٍّ منهما مميزاتهما وعيوبها:

(الطريقة الأولى):

وهي أنفع للصِّغار والشبابِ ومَن أُوتِيَ موهبةَ الحفظِ: وهي بأن يُقرَّر الطالبُ على نفسه لكلِّ يومٍ جزءًا يسيرًا من العلم، كأن يكون حديثًا، أو حديثين، أو أكثر، ويُستحسنُ أن يكونَ قدرًا يسيرًا، فإنَّ القليلَ يثبتُ، والكثيرَ لا يُحصَلُ؛ فيتحفظُ هذا المقرَّرُ يوميًّا، حتى يُعيَّبه في صدره. ويستمرُّ على ذلك فترةً طويلةً، هي سنواتُ طلبه للعلم، مع تعهُّدِ المحفوظِ دائمًا.

(الطريقة الثانية):

وهي أنفع لكبار السنِّ ولمنْ لم يُؤتَ موهبةَ الحفظِ: وتتلخَّصُ في إدمانِ مجالسةِ الكتبِ، وإدامةِ القراءةِ فيها، والجلدِ في ذلك والصبرِ عليه، مع الإكثارِ مِنَ النَّسخِ والكتابةِ، وتعويدِ اليَدِ على ذلك^(٢).

❖ من الأسبابِ التي يُستعانُ بها على الحفظِ:

- اجتنابُ المحرِّماتِ وتركُ المنهياتِ

قال ابنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: (إني لأحسبُ أنَّ الرَّجُلَ يَنْسَى العِلْمَ قَدِ عِلْمَهُ بِالذَّنْبِ يَعْمَلُهُ)^(٣).

(١) ((الحيوان)) للحافظ (١/٥٨، ٥٩).

(٢) ((نصائح منهجية)) لحاتم العوني، بتصرف (ص: ٦٢-٦٣).

(٣) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (١/٦٧٥).

وقال رجلٌ للإمام مالكٍ: (يا أبا عبد الله، هل يصلحُ لهذا الحفظِ شيءٌ؟)
قال: إن كان يصلحُ له شيءٌ فتركُ المعاصي^(١).

- اغتنامُ الأوقاتِ المناسبةِ للحفظِ

رُوي أنَّ المنذرَ قال للعثمانِ ابنه: (يا بُنَيَّ، أَحِبُّ لَكَ النَّظَرَ فِي الْأَدَبِ
بِاللَّيْلِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ بِالنَّهَارِ طَائِرٌ، وَبِاللَّيْلِ سَاكِنٌ، وَكَلَّمَا أَوْعَيْتَ فِيهِ شَيْئًا
عَلَّقَهُ).

قال الخطيبُ البغداديُّ معلقًا على هذه الوصية: (إنَّما اختاروا المطالعةَ
بالليلِ لخلْوِ القلبِ، فَإِنَّ خُلُوهُ يَسْرِعُ إِلَيْهِ الْحَفْظُ، وَهَذَا لَمَّا قِيلَ لِحَمَّادِ بْنِ
زَيْدٍ: مَا أَعُونَ الْأَشْيَاءَ عَلَى الْحَفْظِ؟ قَالَ: قَلَّةُ الْغَمِّ.

وَلَيْسَ تَكُونُ قَلَّةُ الْغَمِّ إِلَّا مَعَ خُلُوهِ السَّرِّ، وَفِرَاقِ الْقَلْبِ، وَاللَّيْلِ أَقْرَبُ
الْأَوْقَاتِ إِلَى ذَلِكَ)^(٢).

- إِحْكَامُ الْحَفْظِ بِكَثْرَةِ التَّكْرَارِ

قال ابنُ الجوزيِّ: (الطريقُ في إِحْكَامِهِ كَثْرَةُ الْإِعَادَةِ، وَالنَّاسُ يَتَّفَاوَتْونَ فِي
ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَثْبُتُ مَعَهُ الْمُحْفَوظُ مَعَ قَلَّةِ التَّكْرَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَحْفَظُ إِلَّا
بَعْدَ التَّكْرَارِ الْكَثِيرِ.

وَكَانَ أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيرَازِيُّ، يُعِيدُ الدَّرْسَ مِئَةَ مَرَّةٍ، وَكَانَ الْكِيَا الْهَرَّاسِيُّ
يُعِيدُ سَبْعِينَ مَرَّةً. وَقَالَ لَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ النِّيسَابُورِيُّ الْفَقِيهَ: لَا يَحْصُلُ

(١) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (٢/٣٨٧).

(٢) ((المصدر السابق)) (٢/٤٠٠-٤٠١).

الحفظ إليّ حتى يعادَ خمسينَ مرّةً. وحكى لنا الحسنُ أنّ فقيهاً أعادَ الدرسَ في بيته مرارًا كثيرةً، فقالت له عجوزٌ في بيته: قد واللهِ حفظته أنا! فقال: أعيديه، فأعادته؛ فلمّا كان بعدَ أيامٍ، قال: يا عجوزُ، أعيدي ذلكَ الدرسَ، فقالت: ما أحفظه، قال: إليّ أكرّرُ عندَ الحفظِ لئلا يُصيّبني ما أصابك^(١).

– الجهرُ بقراءةٍ ما يُرادُ حفظه

قالَ الرُّبَيْرُ بنُ بَكَارٍ: (دخلَ عليّ أبي وأنا أزوي في دفترٍ ولا أجهرُ، أزوي فيما بيني وبينَ نفسي، فقال لي: إنّما لك من روايتك هذه ما أدّى بصرك إلى قلبك، فإذا أردتَ الروايةَ فانظرُ إليها واجهرُ بها؛ فإنّه يكونُ لك ما أدّى بصرك إلى قلبك، وما أدّى سمعك إلى قلبك)^(٢).

❖ سعةِ حفظِ بعضِ العلماء:

كان أبو رأسٍ المعسكريّ - محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ القادرِ الجزائريّ (ت: ١٢٣٩هـ) - يُدكرُ بقوةَ حافظته، وسعةِ اطلاعه، وأنهم بسببِ ذلك، وحكي (أنّ جماعةً من تلاميذه تذاكروا في قوةِ حافظته وكأنهم اتهموه بالاختلاق، فركّبوا اسمًا نطق كلُّ واحدٍ منهم بحرفٍ منه، وجعلوه اسمًا للملك، وسألوا الشيخَ عنه، فأملَى لهم ترجمته، وسيرته وأعماله، فاتَّفَقوا أنّ الشيخَ كاذبٌ!!).

ولمّا طالَتِ المدّةُ، وقَفَ أحدهم على الاسمِ والسيرةِ في كتابِ تاريخيّ على نحوِ ما كانَ أملاه الشيخُ أبو رأسٍ عليهم، فعلموا أنّ الشيخَ صادقٌ،

(١) ((الحث على حفظ العلم)) لابن الجوزي (ص: ٢١).

(٢) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (٤٠٢/٢).

وهم مُقَصِّرُونَ مُتَّهَمُونَ الشَّيْخَ مِمَّا هُوَ مِنْهُ بَرِيءٌ.

قال الكتاني: وهذه حالة كبار الحفَّاظِ مع القاصِرِينَ والجاهِلِينَ^(١).

ج- المذاكرة:

قال الخطيب: (ينبغي أن يتذاكر مواظبو مجلس الشيخ ما وَقَعَ فيه من الفوائد، والضوابط، والقواعد، وغير ذلك، وأن يُعيدوا كلامَ الشيخ فيما بينهم، فإنَّ في المذاكرة نفعًا عظيمًا، وتكونُ المذاكرة عندَ القيامِ من مجلسه قبلَ تفرُّقِ أذهانهم، وتشتتِ خواطِرهم، وشُدُوذِ بعضِ ما سمِعوه عن أفهامهم...

وأفضلُ المذاكرة مذاكرة الليل، فإن لم يجد الطالب من يذاكره، ذاكر نفسه بنفسه، وكرَّرَ معي ما سمِعَه، ولفظه على قلبه؛ ليلق ذلك على خاطره؛ فإنَّ تَكَرَّرَ المعنى على القلب، كتكرار اللفظ على اللسان، سواءً بسواءٍ، وقلَّ أن يُفْلِحَ مَنْ يقتصرُ على الفكرِ والتعقلِ، بحضرة الشيخ خاصةً، ثم يترُكه ويقومُ، ولا يعاودُه)^(٢).

وعن عليِّ بن الحسن بن شقيق قال: (قُمتُ مع ابنِ المبارك ليلةً باردةً، ليخرج من المسجد، فذاكرني عندَ البابِ بحديثٍ، وذاكرته، فما زال يُذاكرني، حتَّى جاء المؤدُّنُ، فأذَّنَ للفجرِ)^(٣).

وعن عطاء قال: (كنا نكونُ عندَ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، فيُحدِّثنا..

(١) ((فهرس الفهارس)) للكتاني (١/١٥١).

(٢) ((تذكرة السامع والمتكلم)) لابن جماعة، بتصرف (ص: ١٤٣-١٤٥).

(٣) ((تذكرة الحفاظ)) للذهبي (١/٢٧٧).

فإذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ تَذَاكَرْنَا حَدِيثَهُ، فَكَانَ أَبُو الزُّبَيْرِ أَحْفَظَنَا
لِلْحَدِيثِ^(١).

وقال عبدُ اللهِ بنُ المعتزِّ: (مَنْ أَكْثَرَ مَذَاكَرَةَ الْعُلَمَاءِ، لَمْ يَنْسَ مَا عَلِمَ،
وَاسْتَفَادَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)^(٢).

عن عبدِ العزیز بنِ أبي حازمٍ، قال: (قال أبي: كان الناسُ فيا مضى من
الزَّمانِ الأوَّلِ إذا لقي الرَّجُلُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ قال: اليَوْمَ يَوْمٌ غُنِي. فيتعلَّمُ
مِنْهُ، وإذا لقي مَنْ هُوَ مِثْلُهُ قال: اليَوْمَ يَوْمٌ مُذاكَرَتِي. فيُذاكِرُهُ، وإذا لقي مَنْ
هُوَ دُونَهُ عَلَّمَهُ، ولم يَزُهُ عَلَيْهِ، حتى صارَ هذا الزمانُ، فصارَ الرَّجُلُ يَعِيبُ مَنْ
فَوْقَهُ ابْتِغَاءً أَنْ يَنْقَطَعَ مِنْهُ حَتَّى لَا يَرَى النَّاسُ أَنْ لَهُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، وإذا لقي مَنْ
هُوَ مِثْلُهُ لَمْ يُذَاكِرْهُ، فَهَلْكَ النَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ)^(٣).

وعن ابنِ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهُما أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:
(إِنَّمَا مِثْلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمِثْلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا
أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ)^(٤).

قال الحافظُ ابنُ عبدِ البرِّ: (وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَعَاهَدْ
عِلْمَهُ ذَهَبَ عَنْهُ أَي مَنْ كَانَ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُمْ كَانَ ذَلِكَ الْوَقْتَ الْقُرْآنَ لَا غَيْرُهُ،
وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْمَيْسُرُ لِلذِّكْرِ يَذْهَبُ إِنْ لَمْ يُتَعَاهَدْ، فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِ مِنْ

(١) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (١/٣٦٥).

(٢) ((المصدر السابق)) (٢/٤١٥).

(٣) ((المصدر السابق)) (٢/٢٧٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٣١) ومسلم (٧٨٩).

العلوم المعهودة؟ وخير العلوم ما ضُبط أصله، واستُذكر فرعه، وقاد إلى الله تعالى، ودلَّ على ما يرضاه^(١).

قال ابن حجر: (المذاكرة هو: المُنذرُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ مُعاويةَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ المنذرِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ معاويةَ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ الأندلسيِّ المروانيِّ، لُقِّبَ بذلك؛ لأنَّه كان إذا لقي أحداً قال له: هل لك في مُذاكرةٍ بابٍ مِنَ العرَبِيَّةِ؟ فلقَّبَ المذاكرة^(٢)).

❖ الوسائلُ المُعِينَةُ لِطالبِ العلمِ:

- (أَنْ يُقَلَّلَ مِنْ نَوْمِهِ، مَا لَمْ يَلْحَقْهُ ضَرَرٌ فِي بَدَنِهِ وَذَهَبَتْهُ، وَلَا يَزِيدَ فِي نَوْمِهِ عَنِ ثَمَانِ سَاعَاتٍ، إِنْ احْتَمَلَ حَالَهُ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَعَلَّ).

- أَكُلْ القَدْرَ اليسيرَ مِنَ الحلالِ؛ فَكَثْرَةُ الأَكْلِ جالِبَةٌ لكثْرَةِ الشربِ، ثُمَّ كَثْرَةُ النَوْمِ، وَحصولُ البلادَةِ، وَقصورُ الدَّهْنِ، وَفتورُ الحواسِّ، وَكسلُ الجسْمِ.

قال الفَحطانيُّ في نُوبَتِيَّته:

لا تَحْشُ بَطْنَكَ بالطَّعامِ تَسْمُنًا فَجُسُومُ أَهْلِ العِلْمِ غَيْرُ سِمَانِ
لا تَتَّبِعْ شَهواتِ نَفْسِكَ مُسْرَفًا فَاللهُ يُبَغِضُ عابِدًا شَهْوانِي
أَقْلِبْ طَعَامَكَ ما اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُ نَفْعُ الجُسُومِ وَصِحَّةُ الأَبْدانِ
وَأَمْلِكْ هَوَاكَ بِضَبْطِ بَطْنِكَ إِنَّهُ شَرُّ الرِّجالِ العاجِزِ البَطْنانِ
- أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالوَرعِ فِي جَمِيعِ شَؤُونِهِ، وَيَتَحَرَّى الحِلالَ فِي طَعَامِهِ

(١) ((التمهيد)) لابن عبد البر (١٤/١٣٣-١٣٤).

(٢) ((نزهة الألباب في الألقاب)) (٢/١٦٥).

وشرايه ولباسه ومسكينه، وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله؛ ليستنير قلبه، ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به.

قال عبد الله بن المبارك:

يا طالب العلم بادِرِ الوَرَعَا وهَاجِرِ النَّوْمَ وَهَاجِرِ الشَّبَعَا
- ألا يخالط في الغالب إلا من يُفيدُه أو يستفيدُ منه.

قال الزرنوجي: (وأما اختيارُ الشريك فينبغي أن يختارَ المُجِدَّ، والورع، وصاحب الطبع المستقيم والمتفهم، ويفرّ من الكسلان، والمعطل، والمكثار، والمفسد، والفتان)^(١).

١١ - الاهتمامُ بعلوم القرآن، وتفسير كلام الله تعالى بخاصة:

قال السيوطي: (قد أجمع العلماء أن التفسير من فروض الكفايات، وأجل العلوم الثلاثة الشرعية).

قال الأصبهاني: (أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن)...

فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث:

أما من جهة الموضوع؛ فلأن موضوعه كلام الله تعالى، الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

وأما من جهة الغرض؛ فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعمارة الوثقى،

(١) ((من هدي السلف في طلب العلم)) لمحمد بن مطر الزهراني، بتصرف (ص: ٥٠-٥٤).

والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تَفنى.

وأما من جهة شِدَّة الحاجة؛ فلأنَّ كلَّ كمالٍ دينيٍّ أو دُنويٍّ، عاجليٍّ أو آجلِيٍّ، مفتقرٌ إلى العلوم الشرعيَّة، والمعارف الدِّينيَّة، وهي متوقِّفةٌ على العلم بكتاب الله تعالى^(١).

قال الذَّهبيُّ: (قلَّ مَنْ يَعْتَنِي اليَوْمَ بالتفسيرِ، بل يُطالِعُ المدرِّسونَ تفسيرَ الفخرِ الرازيِّ، وفيه إشكالاتٌ وتشكيكاتٌ لا يَنْبَغِي سماعُها؛ فإنَّها تُحَيِّرُ ومُمرِّضٌ، وتُرْدي ولا تَشْفِي غليلاً، نسألُ الله العافية)^(٢).

قال الزُّركشيُّ: ((فائدة)): كان بعضُ المشايخِ يقولُ: العلومُ ثلاثةٌ: عِلْمٌ نَضَجَ وما احتَرَقَ، وهو علمُ الأصولِ والنَّحوِ، وعِلْمٌ لا نَضَجَ ولا احتَرَقَ، وهو عِلْمُ البيانِ والتفسيرِ، وعِلْمٌ نَضَجَ واحتَرَقَ، وهو عِلْمُ الفقهِ والحديثِ^(٣).

قال الحرَّالِيُّ في جُزءِ سَماءِ "مِفْتَاحِ البَابِ الْمُقْفَلِ لِفَهْمِ الكِتَابِ المُنزَّلِ": (للهِ تعالى مواهبٌ جعلها أصولاً للمكاسبِ؛ فَمَنْ وهَبَهُ عقلاً يَسَّرَ عليه السبيلَ، وَمَنْ رَكِبَ فيه خرقاً نَقَصَ ضبطه مِنَ التحصيلِ، وَمَنْ أَيْدَهُ بتقوى الاستنادِ إليه في جميعِ أمورِهِ عِلْمَهُ وفَهْمَهُ، قال: وأكملُ العلماءِ مَنْ وهَبَهُ اللهُ تعالى فَهْماً في كلامه، ووعياً عن كتابه، وتبصرةً في القرآنِ، وإحاطةً بما شاء من علومِ القرآنِ؛ ففيه تمامٌ شُهُودٍ ما كَتَبَ اللهُ لمخلوقاته مِنْ ذِكْرِ الحكيمِ، بما يُزِيلُ بكرمِ عِنايته من خطأ اللاعبين؛ إذ فيه كلُّ العلومِ.

(١) ((الإتقان في علوم القرآن)) (٤/١٩٩).

(٢) ((زغل العلم)) (ص: ٤٠).

(٣) ((المنثور في القواعد الفقهية)) (١/٧٢).

وقال الشافعي رضي الله عنه: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن، وجميع القرآن شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، زاد غيره: وجميع الأسماء الحسنى شرح لاسمه الأعظم، وكما أنه أفضل من كل كلام سواه، فعلموه أفضل من كل علم عداه؛ قال تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩].

قال مجاهد: الفهم والإصابة في القرآن. وقال مقاتل: يعني علم القرآن. وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: ١٤٦]، قال: أحرّمهم فهم القرآن... وكل علم من العلوم منتزَع من القرآن، وإلا فليس له برهان.

قال ابن مسعود: من أراد العلم؛ فليثور القرآن^(١)؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين؛ رواه البيهقي في "المدخل"^(٢).

قال الشيوطي: (إن كتابنا القرآن هو مُفجّر العلوم ومنبعها، ودائرته شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء^(٣)، وأبان فيه كل هدي وغيي، فترى كل ذي فنٍّ منه يستمدُّ، وعليه يعتمد؛ فالفقيه يستنبط منه الأحكام، ويستخرج حكم الحلال والحرام. والنحوي يبيّن منه قواعد إعرابه، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه. والبياني يهتدي به إلى

(١) (ثور القرآن)) أي: بحث عن علمه؛ الصحا للجوهري (مادة: ثور).

(٢) ((البرهان في علوم القرآن)) (١/٥-٨).

(٣) أصلها: شيء، وحفت الهمزة لمناسبة السجع، وهذا أحسن.

حُسنِ النظامِ، وَيَعْتَبِرُ مسالكَ البلاغَةِ في صَوغِ الكلامِ. وفيه من القَصصِ والأخبارِ ما يُدكَرُ أولي الأبصارِ، ومن المواعظِ والأمثالِ ما يَزِدُجُرُّ به أولو الفِكرِ والاعتبارِ، إلى غيرِ ذلكِ من علومٍ لا يَقْدُرُ قدرُها إلا مَنْ علِمَ حصرَها؛ هذا مع فصاحةٍ لفظٍ، وبلاغةٍ أسلوبٍ، تُبهرُ العقولَ، وتسلُبُ القلوبَ، وإعجازٍ نظِمٍ لا يَقْدِرُ عليه إلا علّامُ الغيوبِ^(١).

قال ابنُ عبدالهادي: (قال الشيخُ أبو عبداللهِ بنُ رشيقٍ - وكان من أخصِّ أصحابِ شَيْخِنَا، وأكثرِهِم كتابَةً لكلامِهِ، وحرصًا على جمعه كَتَبَ الشيخُ رحمهُ اللهُ... وقال - أي ابن تيميَّة - : "قد فَتَحَ اللهُ عَلَيَّ في هذه المِرَّةِ من معاني القرآنِ، ومن أصولِ العِلْمِ بأشياءَ كان كثيرٌ من العلماءِ يَتَمَنَّوْنَهَا، وندمتُ على تضييعِ أكثرِ أوقاتي في غيرِ معاني القرآنِ"، أو نحو هذا)^(٢).

(قال الشيخُ عطيةٌ عن شيخه محمَّدِ الأمينِ الشنقيطيِّ: "كانَ اهتمامُهُ بالعلمِ، وبالعلمِ وحده، وكلُّ العلومِ عنده آلةٌ ووسيلةٌ، وعِلْمُ الكتابِ وحده غايةٌ".

وقال ابنُه عبدُاللهِ: "قال لي أبي: لا تُوجِدُ آيةً في القرآنِ إلا درسْتُها على جدِّة".

وكان يُلَهجُ دائِمًا بالوصيةِ بالنظرِ في كتابِ اللهِ وتدبُّرِهِ، وبهذه الوصيةِ افتتَحَ كتابَهُ، وبها ختمَهُ، حيثُ قال في مُقدِّمة كتابِهِ - بعدَ أن ذكَّرَ فضلَ القرآنِ، ووعدَ اللهُ لمتبِعِهِ، ووعدَهُ للمُعْرِضِ عنه - ما نصُّهُ: "ومع هذا كلُّه؛

(١) ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/١٦).

(٢) ((العقود الدرية)) (ص: ٤٣).

فإنَّ أكثرَ المنتسبينَ للإسلامِ اليومَ في أقطارِ الدُّنيا مُعرضونَ عن التدبُّرِ في آياته، غَيْرُ مكثرينَ بقولِ مَنْ خلقَهُم: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]... إلى أن قال: "وإيَّاكَ ثُمَّ إيَّاكَ أن يُرَهِّدَكَ في كتابِ اللهِ كثرةُ الزاهدين فيه، ولا كثرةُ المُحتقرين لمن يعملُ به، ويدعو إليه! واعلم أنَّ العاقلَ الكَيِّسَ لا يكثرُ بانتقادِ المجانين... إلى أن قال: " أمَّا بعدُ؛ فإنَّا لَمَّا عرفنا إعراضَ أكثرِ المتسمِّينَ باسمِ المسلمينَ اليومَ عن كتابِ ربِّهم، ونَبَذَهُم له وراءَ ظُهورِهِم، وعدمَ رغبتِهِم في وعده، وعدمَ خوفِهِم من وعيده، علمنا أن ذلك ممَّا يُعين على مَنْ أعطاه اللهُ علمًا بكتابه أن يجعلَ همتهُ في خدمته من بيانِ معانيه، وإظهارِ محاسنه، وإزالةِ الإشكالِ عمَّا أشكلَ منه، وبيانِ أحكامِهِ، والدعوةِ إلى العملِ به وتركِ كلِّ ما يُخالِفُهُ.

واعلم أنَّ السُّنَّةَ كُلَّهَا تندرجُ في آيةٍ واحدةٍ من بحره الزاخر، وهي قوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧]^(١).

١٢ - الاهتمام بعلم الحديث:

❖ أهمية تعلُّم علم الحديث

للهِ دَرُّ القائلِ:

(دينُ النبيِّ محمدٍ أخبارٌ نَعَمَ المطيئةُ للفَتَى الآثارُ

(١) (ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي) لعبدالرحمن السديس (ص: ١٩٢-١٩٤) بتصرف.

لا ترغبن عن الحديث وأهله
ولرئما غلط الفتى سبل الهدى
وقد أحسن من قال:

دين الرسول وشرعه أجزائه
من كان مشتغلاً بها وبنشرها
قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ
عَلَيَّ صَلَاةً))^(١). وحسنه غير واحد.

قال ابن حبان بعد إخراج هذا الحديث في صحيحه: (في هذا الخبر دليل على أن أولى الناس برسوله صلى الله عليه وسلم في القيامة أصحاب الحديث؛ إذ ليس من هذه الأمة قوم أكثر صلاةً عليه منهم)^(٢).
وعلى طالب العلم (أن يكثر بسماع الحديث، ولا يُهمَل الاشتغال به، وبعلمه، والنظر في إسناده، ورجاله، ومعانيه، وأحكامه، وفوائده، ولغته، وتواريخه، ويعتني بمعرفة أنواعه، صحيحها، وحسنها، وغيرها؛ فإن الحديث أحد جناحي العلم بالشرعية، المبيّن لكثير من الجناح الآخر، وهو القرآن، ولا يقنع بمجرد السماع، بل يعتني بالدراية أشد من اعتنايه بالرواية؛ لأنّ الدراية هي المقصود بنقل الحديث، وتبليغه)^(٣).

(١) ((شرف أصحاب الحديث)) للخطيب البغدادي (ص: ٧٦).

(٢) ((البلديات)) للسخاوي (ص: ٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٤٨٤).

(٤) ((الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان)) لابن بلبان (٣/١٩٢، ١٩٣).

(٥) ((تذكرة السامع والمتكلم)) لابن جماعة، بتصرف (ص: ١٢٦-١٣٣).

قال أبو حاتم: (قال لي أبو زُرْعَةَ: ما رأيتُ أحرصَ على طلبِ الحديثِ منك، فقلتُ له: إنَّ عبدَ الرحمنِ ابني لحريصٌ. فقال: مَنْ أشبهَ أباه فما ظلمَ).
 قال الرقأ: (فسألتُ عبدَ الرحمنِ عن اتِّفاقِ كثرةِ السَّماعِ له، وسؤالاتِهِ لأبيه، فقال: رُبَّمَا كان يأكلُ وأقرأُ عليه، ويمشِي وأقرأُ عليه، ويدخلُ الخلاءَ وأقرأُ عليه، ويدخلُ البيتَ في طلبِ شيءٍ وأقرأُ عليه!)^(١).

– الحديث بين الرواية والدراية:

قال الخطيبُ البغداديُّ: (كرِهَ مالكٌ، وابنُ إدريسَ، وغيرُهُما الإكثارَ من طلبِ الأسانيدِ الغريبةِ، والطرقِ المستنكرةِ... مما يتتبعُ أصحابُ الحديثِ طرقَه، ويُعنونَ بجمعه؛ والصحيحُ من طرقه أقلُّها، وأكثرُ مَنْ يجمعُ ذلك الأحداثُ منهم، فيتحفظونها، ويذاكرونَ بها، ولعلَّ أحدهمَ لا يعرفُ من الصحاحِ حديثًا، وتراه يذكرُ من الطرقِ الغريبةِ، والأسانيدِ العجيبةِ، التي أكثرُها موضوعٌ، وجلُّها مصنوعٌ، ما لا ينتفعُ به، وقد أذهبَ من عمره جزءًا في طلبه، وهذه العلةُ هي التي اقتطعتْ أكثرَ مَنْ في عصرنا من طلبِ الحديثِ عن التفقهِ به، واستنباطِ ما فيه من الأحكامِ، وقد فعلَ متفقهُهُ زماننا كفعليهم، وسلَّكوا في ذلك سبيلهم، ورغبوا عن سماعِ السُّننِ من المحدثين، وشغلوا أنفسهم بتصانيفِ المتكلمين، فكِلا الطائفتينِ ضيَّعَ ما يعنيه، وأقبلَ على ما لا فائدةَ فيه)^(٢).

– الحديث بين حفظ الرواية والرعاية:

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٣/٢٥٠، ٢٥١).

(٢) (شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي) (١٣٠، ١٢٩).

قال الشيخ بكر أبو زيد: (وَلِيَحْدَرَ أَنْ يَجْعَلَهُ سَبِيلًا إِلَى نَيْلِ الْأَعْرَاضِ، وَطَرِيقًا إِلَى أَخْذِ الْأَعْوَاضِ؛ فَقَدْ جَاءَ الْوَعِيدُ لِمَنْ ابْتَغَى ذَلِكَ بِعِلْمِهِ.

وَلِيَتَّقِيَ الْمَفَاخِرَةَ وَالْمَبَاهَاةَ بِهِ، وَأَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي طَلْبِ الْحَدِيثِ نَيْلَ الرِّئَاسَةِ، وَالْخِذَاذَ الْأَتْبَاعِ، وَعَقْدَ الْمَجَالِسِ؛ فَإِنَّ الْآفَةَ الدَّاخِلَةَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَكْثَرُهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَلِيَجْعَلَ حِفْظَهُ لِلْحَدِيثِ حِفْظَ رِعَايَةٍ لَا حِفْظَ رَوَايَةٍ؛ فَإِنَّ رَوَاةَ الْعُلُومِ كَثِيرٌ، وَرِعَاثَتَهَا قَلِيلٌ، وَرُبَّ حَاضِرٍ كَالْغَائِبِ، وَعَالِمٍ كَالْجَاهِلِ، وَحَامِلٍ لِلْحَدِيثِ لَيْسَ مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ؛ إِذْ كَانَ فِي اطِّرَاحِهِ لِحْكَمِهِ، بِمَنْزِلَةِ الذَّاهِبِ عَنِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ^(١).

١٣- الأدب مع المعلم:

قال الشافعي: كنتُ أصفحُ الورقةَ بينَ يدي مالِكٍ صفحًا رَفيقًا؛ هيبَةً لَهُ، لئلا يسمعَ وَقَعَهَا.

وقال الرِّيعُ: واللَّهِ ما اجْتَرَأْتُ أَنْ أَشْرَبَ الْمَاءَ وَالشَّافِعِيَّ يَنْظُرُ إِلَيَّ؛ هيبَةً لَهُ^(٢).

وذكر الخطيبُ أنَّ على طالبِ العلمِ (أن يصبِرَ على جفوةٍ تصدُرُ مِنْ شَيْخِهِ أَوْ سُوءِ خُلُقِي، وَلَا يَصْدَهُ ذَلِكَ عَنْ مَلَازِمَتِهِ وَحَسَنِ عَقِيدَتِهِ، وَيَتَأَوَّلَ أفعالَهُ الَّتِي يَظْهَرُ أَنَّ الصَّوَابَ خِلافُهَا عَلَى أَحْسَنِ تَأْوِيلٍ، وَيَبْدَأُ هُوَ عِنْدَ

(١) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص: ٣٨).

(٢) ((تذكرة السامع والمتكلم)) لابن جماعة (ص: ٨٨).

جفوة الشيخ بالاعتذار والتوبة ممّا وقع والاستغفار، وينسب الموجب إليه، ويجعل العتب عليه؛ فإنّ ذلك أبقى لمودة شيخه، وأحفظ لقلبه، وأنفع للطالب في دنياه وآخرته.

اصبرٍ لدائكٍ إن جفوت طبيه واصبرٍ لجهلك إن جفوت معلّمًا
وأن يشكر الشيخ على توقيفه على ما فيه فضيلةً، وعلى توبيخه على ما فيه نقيصةً، أو على كسلٍ يعتريه، أو قصورٍ يُعابنه أو غير ذلك مما في إيقافه عليه وتوبيخه، إرشاده وصلاحه، ويعدُّ ذلك من الشيخ من نعم الله تعالى عليه باعتناء الشيخ به ونظره إليه، فإنّ ذلك أمثلٌ إلى قلب الشيخ وأبعثٌ على الاعتناء بمصالحه^(١).

قال أحمد بن سنان: كان لا يُحدّث في مجلس عبد الرحمن، ولا يُرى قلم، ولا يتبسّم أحد، ولا يقوم أحد قائمًا، كأنّ على رؤوسهم الطير، أو كأهم في صلاة، فإذا رأى أحدًا منهم تبسّم، أو تحدّث، لبس نعله، وخرج!^(٢)

قال أبو هلال العسكري: (جعل الحكماء منزلة العلماء، مثل منزلة الملك، فقالوا: من أدب الداخل على العالم، أن يسلم على أصحابه عامّةً، ويخصّه بالتحية، ويجلس قدامه، ولا يشير بيده، ولا يغمز بعينه، ولا يقول بخلاف قوله، ولا يعتاب عنده أحدًا، ولا يسار في مجلسه، ولا يلح عليه إذا

(١) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة، بتصرف (ص: ٩١ - ٩٣).

(٢) ((سير أعلام النبلاء للذهبي)) ط الرسالة (٩/٢٠١-٢٠٢).

كسل، ولا يُعرضَ عن كلامه، فإنَّه بمنزلةِ النخلةِ، لا يزالُ يسقطُ عليك منها شيءٌ ينفَعُك^(١).

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (فليكنْ شيخُك محلَّ إجلالٍ منك وإكرامٍ وتقديرٍ وتلفيفٍ، فخذْ بمجامعِ الآدابِ معَ شيخِك في جلوسِك معه، والتحدُّثِ إليه، وحسنِ السُّؤالِ والاستماعِ، وحسنِ الأدبِ في تصفُّحِ الكتابِ أمامه ومع الكتابِ، وتركِ التطاؤلِ والمماراةِ أمامه، وعدمِ التقدُّمِ عليه بكلامٍ أو مسيرٍ أو إكثارِ الكلامِ عنده، أو مداخلتهِ في حديثه ودرسه بكلامٍ منك، أو الإلحاحِ عليه في جوابٍ، متجنبًا الإكثارَ من السؤالِ، ولا سيَّما مع شهودِ الملأ، فإنَّ هذا يُوجبُ لك الغرورَ وله المللُ...)^(٢).

❖ بِمَ تَكُونُ الْقُدْوَةُ؟

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (القدوةُ بصلاحِ أخلاقه وكريمِ شمائله، أمَّا التلقِّي والتلقينُ فهو ربحٌ زائدٌ، لكن لا يأخذُك الاندفاعُ في محبةِ شيخِك فتقعَ في الشَّنَاعَةِ مِن حيثُ لا تَدْرِي، وكلُّ مَنْ ينظرُ إليك يَدْرِي، فلا تقلِّدْه بصوتٍ ونعمةٍ، ولا مشيةٍ وحركةٍ وهيئةٍ، فإنَّه إنَّما صارَ شيخًا جليلاً بتلك، فلا تسقطُ أنت بالتبعيةِ له في هذه)^(٣).



(١) ((الحث على طلب العلم)) للعسكري (ص: ٨٤).

(٢) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص: ٢٥).

(٣) (المصدر السابق) (ص: ٢٧).

رابعاً: إضاءات للشباب على الطريق

١- من عوائق طلب العلم:

- (طلب العلم لغير وجه الله تعالى).
- ترك العمل.
- الاعتماد على الكتب دون العلماء.
- أخذ العلم عن الأصغر.
- عدم التدرج في العلم.
- الغرور والعجب والكبر.
- استعجال الثمرة.
- دنو الهمة.
- التسويف.
- التميي^(١).

٢- احذر هذه الآفات:

- (حلم اليقظة، ومنه بأن تدعي العلم لما لم تعلم، أو إتقان ما لم تتقن، فإن فعلت فهو حجاب كثيف عن العلم).
- ما يتسلى به المفلسون من العلم، يُراجع مسألة أو مسألتين، فإذا كان في مجلس فيه من يُشار إليه، أثار البحث فيهما، ليظهر علمه! وكم في هذا من سوءة، أقلها أن يعلم أن الناس يعلمون حقيقته.

(١) ((عوائق الطلب)) لعبد السلام برجس (ص: ٩-٧٤).

- إذا ظفرت بوهمٍ لعالمٍ، فلا تفرح به للحطّ منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط، فإنّ المنصف يكادُ يجرّمُ بأنّه ما من إمامٍ إلا وله أغلاطٌ وأوهامٌ، لا سيّما المكثرين منهم.

وما يُشغِبُ بهذا ويفرحُ به للتنقِصِ إلا متعالمٌ يريدُ أن يطبَّ زُكامًا فيُحدثَ به جُدامًا^(١).

قال الصنعايُّ: (ليس أحدٌ من أفراد العلماء إلا وله نادرةٌ ينبغي أن تُعمرَ في جنبِ فضله وتُحتَنَب^(٢)).

وقال أبو هلالٍ العسكريُّ: (ولا يضرُّ من العالم الذي برعَ في علمه زلةٌ، إن كان على سبيلِ السهو والإغفال؛ فإنّه لم يعرَ من الخطأ إلا من عصم الله جلّ ذكره. وقد قالت الحكماءُ: الفاضلُ من عُدت سقطاته، وليتنا أدركنا بعضَ صوابهم، أو كنّا ممن يميّزُ خطأهم)^(٣).

- (لا تجعل قلبك كالسفنجة تتلقّى ما يردُّ عليها، فاجتنب إثارة الشبه وإيرادها على نفسك أو غيرك، فالشُّبهُ خطّافةٌ، والقلوبُ ضعيفةٌ، وأكثرُ من يُلقِيها حمالةُ الخطبِ - المبتدعةُ - فتوقّهم)^(٤).

- لا تكن خنفساريًّا

قال الشيخ بكر أبو زيد: (الخنفساريُّ المتعالمُ: ما زال الناسُ يُبتَلون بهذا

(١) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد، بتصرف (ص: ٥٧).

(٢) ((سبل السلام)) للصنعاني (١/١٦٨).

(٣) ((شرح ما يقع فيه التصحيف)) للعسكري (ص: ٦).

(٤) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد، بتصرف (ص: ٥٩).

الطَّرَازِ النَكَدِ مِنَ الْخُنْفَشَارِيِّنَ، فَقَدْ قَرَأْتُ لَدَى نَقْلَةِ السَّيْرِ، وَمُقَيَّدِي الْأَخْبَارِ
وَالْأَثَرِ، مَثَلًا مِنْهَا فِي الْغَابِرِينَ، فَعَلَى جَادَّةِ الْمَثَالِ:

مُفْتِي الْخُنْفَشَارِ: فِي كِتَابِ الْمَحَاضِرَاتِ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُفْتِي كُلَّ سَائِلٍ دُونَ
تَوْقُفٍ، فَلَحِظْتُ أَقْرَأْتُهُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ لَامْتِحَانِهِ، بَنَحْتِ كَلِمَةٍ لَيْسَ
لَهَا أَصْلٌ، هِيَ الْخُنْفَشَارُ فَسَأَلُوهُ عَنْهَا، فَأَجَابَ عَلَيَّ الْبَدِيهِيَّةُ: بِأَنَّهُ نَبْتُ
طَيْبِ الرَّائِحَةِ يَنْبْتُ بِأَطْرَافِ الْيَمَنِ، إِذَا أَكَلْتَهُ الْإِبْلُ عَقَدَ لَبَنَهَا، قَالَ
شَاعِرُهُم الْيَمَانِيُّ:

لَقَدْ عَقَدَتْ مَحَبَّتُكُمْ فُؤَادِي كَمَا عَقَدَ الْحَلِيبُ الْخُنْفَشَارُ
وهذا الشيخُ محمدُ بدرُ الدينِ الحلبيُّ رحمه اللهُ تعالى سألَ أزهريًّا عن
أصيلاً في بيتِ النابغة:

وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلاً أُسَائِلُهَا عَيْتَ جَوَابًا وَمَا بِالرَّيْعِ مِنْ أَحَدٍ
فقال الأزهريُّ: أَصِيلٌ بفتحِ الهمزة، وكسرِ الصادِ، ولا نافيةٌ للفعلِ بعدها.
فقلنا: لا، بل (أصيلاً) كلُّها كلمةٌ واحدةٌ، والفعلُ بعدها مثبتٌ. فضحك،
وقال: يقولُ اللهُ {بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الأحزاب: ٤٢] وتقولون أصيلاً! (١).

- تَجَنَّبَ تَتَبَعَ الرَّخِصِ وَالْأَقْوَالِ الشَّاذَةِ

قال سليمانُ التَّيْمِيُّ: (إِنْ أَخَذْتَ بِرِخْصَةِ كُلِّ عَالِمٍ اجْتَمَعَ فِيكَ الشَّرُّ
كُلُّهُ) (٢).

(١) ((التعلم)) لبكر أبو زيد، بتصريف (ص: ١٥، ١٩).

(٢) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٢/٩٢٧).

وقال الشيخ بكر: (لَمَّا كَانَ فِي الشَّدُوذِ وَالتَّرْخُصِ، مُنَابِذَةً لِلشَّرْعِ، صَانَ السَّالْفُونَ دِينَهُمْ وَعِلْمَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَقَدْ يَقَعُ لَدَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ، أَوْ فِي الْمَذْهَبِ: الْمَسْأَلَةُ أَوْ الْمَسْأَلَتَانِ عَنْ عَارِضٍ مِنَ الْاسْتِدْلَالِ انْقِدَاحَ بَدْهِنِهِ لَا لِلتَّشْهِي، لَكِنْ مَا يَلْبُثُ أَنْ يُؤْوَبَ، أَوْ يَقِفَ الْقَوْلُ عِنْدَ قَائِلِهِ، فَيُهْجَرَ ذَلِكَ مِنَ الرَّأْيِ، وَيَسِيرُ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى الْجَادَّةِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ)^(١).

وَأَوْصَى خَالِدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ بَرْمَكٍ ابْنَهُ، فَقَالَ لَهُ: (يَا بُيَّيْ، خَذْ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِحِطٍّ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ جَهَلْتَ، وَإِنْ جَهَلْتَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ عَادِيَتَهُ، وَعَزِيْزٌ عَلَيَّ أَنْ تَعَادِيَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ)^(٢).

٣- كُنْ عَالِي الْهَمَةِ:

قال ابن الجوزي، متحدِّثًا عن علوِّ الهمة:

(تَأَمَّلْتُ عَجَبًا، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفِيسٍ خَطِيرٍ يَطُولُ طَرِيقُهُ، وَيَكْتُرُّ التَّعَبُ فِي تَحْصِيلِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ لَمَّا كَانَ أَشْرَفَ الْأَشْيَاءِ، لَمْ يَحْصُلْ إِلَّا بِالتَّعَبِ، وَالسَّهْرِ، وَالتَّكْرَارِ، وَهَجْرِ اللَّذَاتِ، وَالرَّاحَةِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ: بَقِيَتْ سِنِينَ أَشْتَهِي الْمَهْرِيْسَةَ لَا أَقْدُرُ؛ لِأَنَّ وَقْتَ بَيْعِهَا وَقْتُ سَمَاعِ الدَّرْسِ... وَلَوْلَا مَا عَانَى يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا قِيلَ لَهُ: (أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ نَيْلَ الدُّرِّ مِنَ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ مَعَانَاةِ الشَّدَائِدِ، وَمَنْ تَفَكَّرَ فِيمَا ذَكَرْتُهُ مَثَلًا؛ بَانَتْ لَهُ أَمْثَالُ)^(٣).

(١) ((التعلم)) لبكر أبو زيد (ص: ٩٤).

(٢) ((جامع بيان العلم)) لابن عبد البر (٥٢٣/١).

(٣) ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي، بتصرف (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

وقال أيضًا محدِّثًا ولده عن نشأته:

(وإني لأذكرُ لك بعضَ أحوالي؛ فإني أذكرُ نفسي ولي همةً عاليةً، ولي نحوُ من ستِّ سنينَ، وأنا قرينُ الصِّبيانِ الكبارِ، فما أذكرُ أني لعبتُ في طريقٍ مع صبيٍّ، ولا ضحكْتُ ضحكًا خارجًا، حتَّى إني كنتُ ولي سبعِ سنينَ أو نحوها، أحضرتُ رحبةَ الجامعِ، أطلبُ المحدثَ، فيتحدثُ بالسَّمرِ الطويلِ فأحفظُ، فأرجعُ إلى البيتِ، فأكتبُه، ولقد كانَ الصبيانُ ينزلون دِجْلَةً، ويتفرَّجون على الجسرِ، وأنا في زمنِ الصَّغرِ آخذُ جزءًا، وأقعدُ حُجزَةً من النَّاسِ، إلى جانبِ الرِّقَّةِ، فأتشاغلُ بالعلمِ، وكنْتُ أصبحُ وليس لي ما أكلُ، وأمسي وليس لي شيءٌ)^(١).

وقال أيضًا:

(تأملتُ أحوالَ الناسِ في حالةِ علوِّ شأنهم، فرأيتُ أكثرَ الخلقِ تبيئُ خسارتهم حينئذٍ؛ فمنهم من بالغَ في المعاصي من الشَّبَابِ، ومنهم من فرطَ في اكتسابِ العلمِ، ومنهم من أكثرَ من الاستمتاعِ باللذاتِ، فكلُّهم نادمٌ في حالةِ الكبرِ، حينَ فواتِ الاستدراكِ لذُنوبِ سلفتِ، أو قُوَى ضعفتِ، أو فضيلةٍ فاتتِ، فيمضي زمانُ الكبرِ في حسراتٍ؛ فإنَّ كانتَ للشيخِ إفاقةٌ من ذنوبٍ قد سلفتِ؛ قال: وا أسفا على ما جَنَيْتُ! وإن لم يكنْ له إفاقةٌ؛ صارَ متأسفًا على فواتِ ما كانَ يلتدُّ به.

فأمَّا من أنفقَ عصرَ الشَّبَابِ في العلمِ؛ فإنَّه في زمنِ الشيخوخةِ يحمَدُ جنيَ ما غرسَ، ويلتدُّ بتصنيفِ ما جمَع، ولا يرى ما يفقدُ من لذاتِ البدنِ

(١) ((لفتة الكبد في نصيحة الولد)) لابن الجوزي، بتصرف (ص: ٣٣-٣٥).

شيئاً، بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم، هذا مع وجود لذاته في الطلب، الذي كان تأمل به إدراك المطلوب، وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها؛ كما قال الشاعر:

أهترُ عند تمّي وصلها طرباً وربُّ أمنيّةٍ أحلى من الظفر^(١)

قال النووي - نقلاً عن شيخه أبي إسحاق المرادي، وهو يتحدث عن الحافظ المنذري -: (قال شيخنا: ولم أر ولم أسمع أحداً أكثر اجتهاداً منه في الاشتغال؛ كان دائم الاشتغال في الليل والنهار، وقال: وجاورته في المدرسة - يعني: بالقاهرة حماها الله - بيتي فوق بيته اثني عشرة سنة فلم أستيقظ في ليلة من الليالي في ساعة من ساعات الليل إلا وجدت ضوء السراج في بيته، وهو مشغول بالعلم، وحتى كان في حال الأكل، والكتاب والكتب عنده يشتغل فيها)^(٢).

قال ابن عقيل: (إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطلت لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حالة راحتي، وأنا مستطرح، فلا أنفض إلا وقد خطر لي ما أسطره.

وقال أيضاً: أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفراً على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه)^(٣).

(١) ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) ((بستان العارفين)) (١/٧٩).

(٣) ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (١/١٤٥، ١٤٦).

٤ - تحلّ بالصبر وقوّة التحمّل:

قال أحمدُ بنُ سليمانَ القطيعي: (أضقتُ إضاقةً، فمضيتُ إلى إبراهيمِ الحربي؛ لأبثّه ما أنا فيه.

فقال لي: لا يَضِقْ صدْرُكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ ورائِ المعونةِ، وإيَّ أضقتُ مرّةً حتى انتهَى أمرِي في الإضاقةِ إلى أنْ عَدِمَ عيالي قوَّتَهُمْ! فقالت لي الزوجةُ: هبْ أيُّ أنا وإياك نصبرُ، فكيفَ نصنعُ بهاتينِ الصبيّتينِ؟ فهاتِ شيئاً من كتبِكَ حتّى نبيعه أو نرهنه. فضننتُ بذلك، وشحّت نفسي بالكتبِ، وقلتُ لها: اقتري لهما شيئاً، وأنظريني بقيةَ اليومِ واللييلةِ. وكان لي بيتٌ في دهليزِ داري فيه كُتُبِي، فكنْتُ أجلسُ فيه للنسخِ والنّظرِ، فلمّا كانَ في تلكَ اللييلةِ إذا داقٌ يدُقُّ البابَ، فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقال: رجلٌ من الجيرانِ. فقلتُ: ادخلْ. فقال: أطفئِ السّراجَ حتّى أدخلَ. فكبّيتُ على السّراجِ شيئاً وقلتُ: ادخلْ. فدخلَ وتركَ إلى جانبي شيئاً وانصرفَ، فكشفتُ عن السّراجِ، ونظرتُ، فإذا منديلٌ له قيمةٌ، وفيه أنواعٌ من الطعامِ، وكاغدٌ فيه خمسمئةَ درهمٍ، فدعوتُ الزوجةَ وقلتُ: أنبهي الصبيّانَ؛ حتّى يأكلوا. ولما كانَ من الغدِ قَصِينَا دَبِينَا كانَ علينا من تلكَ الدراهمِ، وكانَ وقتَ مجيءِ الحاجِّ من خراسانَ، فجلستُ على بابي من غدِ تلكَ اللييلةِ، فإذا جمالٌ يقودُ جملينِ عليهما جملانَ ورَقاً، وهو يسألُ عن منزلِ الحربيِّ، فانتَهَى إليّ فقلتُ: أنا إبراهيمُ، فحطَّ الحَمَلينِ: وقال: هذانِ الحملانِ أنفَذَهُما لك رجلٌ من خُراسانَ. فقلتُ: مَنْ هو؟ فقال: قد استحلّفتني أن لا أقولَ مَنْ هو^(١).

(١) ((طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١/٨٧-٨٨).

قال سفيان الثوري: (فتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة!)^(١)
أي: حبه والافتتان به.

وقال الإمام البخاري: (أفضل المسلمين رجلًا أحيانًا سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أميتت؛ فاصبروا يا أصحاب السنن رحمكم الله؛ فإنكم أقل الناس).

قال الخطيب عقبه: (قول البخاري: إن أصحاب السنن أقل الناس. عني به الحفاظ للحديث، العالمين بطرقه، المميزين لصحيحه من سقيم، وقد صدق رحمه الله في قوله) وتابع الخطيب قوله: (لأنك إذا اعتبرت لم تجد بلدًا من بلدان الإسلام يخلو من فقيه أو متفقه، يرجع أهل مصره إليه، ويعولون فتاواهم عليه، وتجد الأمصار الكثيرة خالية من صاحب حديث عارف به، مجتهد فيه؛ وما ذاك إلا لصعوبة علمه، وعزته، وقلة من ينجب فيه من سامعيه وكتبته، وقد كان العلم في وقت البخاري غصًا، طريًا، والارتسام به محبوبًا شهياً، والدواعي إليه أكبر، والرغبة فيه أكثر، وقال هذا القول الذي حكيناه عنه؛ فكيف نقول في هذا الزمان مع عدم الطالب، وقلة الراغب؟!)^(٢). وما ذا نقول نحن عن الحال في زماننا؟! فالله المستعان.

قال ابن عباس: (ذللُّ طالبًا؛ فعزُّتُ مطلوبًا)^(٣).

وقال: (وجدتُ عامَّةَ علمِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عندَ هذا الحَيِّ

(١) ((شرف أصحاب الحديث)) للخطيب البغدادي (ص: ١٢٠).

(٢) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب (١/١٦٨).

(٣) ((المجالسة وجواهر العلم)) لأبي بكر الدِّيَنوري (٤/٤٣٩).

من الأنصار، إن كنت لأقيل بباب أحدهم، ولو شئت لأذن لي، ولكن
أبتغي بذلك طيب نفسه^(١).

(وقال عبدالرحمن بن حرملة: قد شجني سعيد بن المسيب في العلم
مرتين. وقال الأعمش: الحبر في ثياب صاحب الحديث، أحسن من الخلق
في ثياب العروس)^(٢).

وذكر عن أبي حاتم أنه قال: (ضاق بي الحال أيام طلبي العلم، فعجزت
عن شراء البزير، فكنت أخرج بالليل إلى الدرب الذي أنزله، وأرتفق بسراج
الحارس، وكان زهما ينام الحارس، فكنت أنوب عنه)^(٣).

وقال رجل لآخر: بم أدركت العلم؟

قال: (طلبته فوجدته بعيد المرام، لا يُصطاد بالسهم، ولا يُرى في
المنام، ولا يُورث عن الأعمام، فتوسلت إليه بافتراش المدر، واستناد الحجر،
وإدمان السهر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ومتابعة السفر، وركوب
الخطر، فوجدته شيئاً لا يصلح إلا للغرس، ولا يُغرس إلا في النفس، ولا
يُسقى إلا بالدرس)^(٤).

وقال الحافظ محمد بن طاهر المقدسي: (بُلت الدم في طلب الحديث
مرتين: مرة ببغداد، ومرة بمكة؛ وذلك أي كنت أمشي حافياً في حرّ الهواجر

(١) ((الحث على طلب العلم)) للعسكري (ص: ٨٣).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص: ٦٥).

(٣) ((المصدر السابق)) (ص: ٨٠).

(٤) ((مقامات بديع الزمان الهمداني)) بتصرف (ص: ٣٠٠-٣٠٢).

بهما، فلحقتني ذلك، وما ركبتُ دابةً قطُّ في طلبِ الحديثِ إلا مرةً، وكنتُ أحملُ كُتبي على ظَهري، إلى أن استوطنتُ البلادَ، وما سألتُ في حالِ طلبي أحدًا، وكنتُ أعيشُ على ما يأتيني من غيرِ سؤالٍ^(١).

قال الحافظُ ابنُ القيم: (الصبرُ يُورثُ صاحبه درجةَ الإمامة؛ سمعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيمية -قدسَ اللهُ روحَه- يقولُ: بالصبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ، ثم تلا قوله تعالى: { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة : ٢٤])^(٢).

٥- احرص... كلَّ الحرص، على العلم:

قال الحسنُ اللؤلؤيُّ: (غَبَّرْتُ أربعينَ عامًا، ما قَلْتُ، ولا بَتُّ، ولا اتَّكأْتُ، إلا والكتابُ موضوعٌ على صدري)^(٣).

وقال عليُّ بنُ الجهم: (إذا غَشِيَنِي النُّعَاسُ فِي غيرِ وقتِ نومٍ - وبئسَ الشيءُ النومُ الفاضلُ عن الحاجةِ - تناولتُ كتابًا من كتبِ الحِكمِ، فأجدُ اهتزازي للفوائدِ، والأريحيةَ التي تعتريني عندَ الظَّفَرِ ببعضِ الحاجةِ، والذي يَعْشَى قَلْبِي من سرورِ الاستبانةِ، وعزِّ التبيينِ، أشدُّ إيقاظًا من نهيقي الحميرِ، وهديةِ الهدمِ)^(٤).

قال ابنُ قيمٍ الجوزية: (أما عُشَّاقُ العلمِ، فأعظمُ شغفًا به، وعشقًا له من

(١) ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (٢٨١/٥٣).

(٢) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١٥٤/٢).

(٣) ((الحيوان)) للجاحظ (٥٢، ٥٣/١).

(٤) ((المحاسن والأضداد)) للجاحظ (ص: ٤).

كلّ عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يشغله عنه أجملُ صورةٍ من البشر...
وحدّثني أخو شيخنا، عبدالرحمن بن تيمية عن أبيه قال: كان الجدُّ إذا دخل
الخلاءَ يقولُ لي: اقرأ في هذا الكتابِ، وارفَع صوتَكَ، حتّى أسمع.

وأعرفُ من أصابه مرضٌ من صداعٍ، وحمّى، وكان الكتابُ عند رأسه،
فإذا وجدَ إفاقةً قرأ فيه، فإذا غلبَ وضعه، فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو
كذلك، فقال: إنَّ هذا لا يحلُّ لك؛ فإنَّك تعيرُ على نفسك، وتكونُ سببًا
لفواتٍ مطلوبك^(١).

قال ابنُ عساكرٍ عن سليم بن أيوب الرّازي: (حدّثتُ عنه أنّه كان
يحاسبُ نفسه على الأنفاسِ، لا يدعُ وقتًا يمضي عليه بغيرِ فائدةٍ؛ إمّا ينسُخُ
أو يدرسُ أو يقرأ... ولقد حدّثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفراييني أنّه نزل
يومًا إلى داره ورجع، فقال: قد قرأتُ جزءًا في طريقي^(٢)).

قال أبو حاتم الرّازي: (بقيتُ بالبصرة في سنة (٢١٤هـ) ثمانية أشهرٍ،
وكان في نفسي أن أقيم سنّةً، فانقطعت نفقتي، فجعلتُ أبيعُ ثيابَ بدني
شيئًا بعد شيءٍ! حتى بقيتُ بلا نفقةٍ! ومضيتُ أطوفُ مع صديقٍ لي إلى
المشيخة، وأسمعُ منهم إلى المساءِ فانصرفَ رفيقي، ورجعتُ إلى بيتِ خالٍ،
فجعلتُ أشربُ الماءَ من الجوعِ، ثم أصبحتُ من الغدِ، وغدا عليّ رفيقي،
فجعلتُ أطوفُ معه في سماعِ الحديثِ على جوعٍ شديدٍ، فانصرفَ عني،
وانصرفتُ جائعًا، فلمّا كان من الغدِ، غدا عليّ، فقال: مرّ بنا على المشايخ.

(١) ((روضة المحبين)) لابن القيم، بتصرف (ص: ٧٠).

(٢) ((تبيين كذب المفتري)) لابن عساكر، بتصرف (ص: ٢٦٣).

فقلتُ: أنا ضعيفٌ لا يُمكنُنِي. قال: ما ضعُفُك؟ قلتُ: لا أكثُمُك أمرِي،
قد مضى يومانِ ما طعمتُ فيهما^(١).

قال أحمدُ بنُ سلمةَ: (عُقِدَ لأبي الحسينِ مسلمِ بنِ الحجاجِ مجلسٌ
للمذاكرة، فذُكِرَ له حديثٌ لم يعرفه، فانصرفَ إلى منزله، وأوقَدَ السراجَ،
وقال لمن في الدارِ: لا يدخلنَّ أحدٌ منكم هذا البيتَ، فقيلَ له: أُهديتُ لنا
سلَّةً فيها تمرٌ. فقال: قدّموها إليَّ. فقدّموها، فكان يطلبُ الحديثَ، ويأخذُ
تمرَّةً تمرَّةً، يمضغُها، فأصبحَ وقد فني التمرُ، ووجدَ الحديثَ)^(٢).

وقال الصّدّيقُ: (لَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ دَفْعَ إِلَيْهِ أَبُوهُ خَمْسِينَ أَلْفَ
دِرْهَمٍ، يَتَجَرَّ بِهَا، فَطَلَبَ الْعِلْمَ، حَتَّى أَفْقَدَهَا، فَلَمَّا انصَرَفَ، لَقِيَهِ أَبُوهُ،
فَقَالَ: مَا جِئْتَ بِهِ؟ فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ الدَّفَاتِرَ، فَقَالَ: هَذِهِ تِجَارَتِي. فَدَخَلَ أَبُوهُ
الْمَنْزَلَ، فَأَخْرَجَ لَهُ أَبُوهُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ أُخْرَى، وَقَالَ: هَذِهِ تَمَّمْ بِهَا تِجَارَتَكَ.
فَأَنْفَقَهَا)^(٣).

وقال عليُّ بنُ المدينيِّ: (سِتَّةُ كَادَتْ تَذْهَبُ عَقُولَهُمْ عِنْدَ الْمَذَاكِرَةِ: يَحْيَى
الْقَطَّانُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، وَوَكِيْعٌ، وَابْنُ عُيَيْنَةَ، وَأَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ،
وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ، مِنْ شِدَّةِ شَهْوَتِهِمْ لَهُ. وَتَذَاكَرَ وَكِيْعٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى أَذَّنَ الْمُؤَدِّدُ أَذَانَ الصَّبْحِ)^(٤).

(١) ((تاريخ بغداد)) للخطيب البغدادي (٧٤/٢).

(٢) ((صيانة صحيح مسلم)) لابن الصلاح (ص: ٦٤).

(٣) ((ترتيب المدارك)) للقاضي عياض (٣/٣٨، ٣٩).

(٤) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب (٤١٢/٢).

وقال مالك: (كنا نزدحُم على درج ابن شهابٍ حتى يسقطَ بعضُنا على بعضٍ!)^(١).

قال الوزيرُ ابنُ العميد: (ما كنتُ أظنُّ أن في الدنيا حلاوةً ألدَّ من الرئاسةِ والوزارةِ التي أنا فيها، حتى شاهدتُ مذاكرةَ الطبرانيِّ والجعابيِّ بحضرتي) ثمَّ قال: (فوددتُ في مكاني أنَّ الوزارةَ والرئاسةَ ليتها لم تكن لي، وكنتُ الطبرانيِّ، وفرحتُ مثلَ الفرح الذي فرح به الطبرانيُّ)^(٢).

٦- تعرّف على مرتبتك في العلم:

(قيل في مراتب طالب العلم:

المبتدئ: وهو يتوهمُ بحفظه لبعضِ المتون، وإتقانه لبعضِ المسائل، أنه غدا في عدادِ الراسخين، أو من يحقُّ لهم الفتوى، والجسارةُ على ما ليس من حقّه.

المتوسِّط: وهو من فجأته كثرةُ العلوم، والكتب، واطلاعه على علم العلماء .. فأكسبه ذلك تواضعًا، وانكسارَ نفسٍ.

المنتهي: وهو من إذا سألته عن حجمِ علمه، قال لك: لا أعلمُ شيئًا. ثم اعلم أن استذكارَ المرءِ لكونِ علمه قليلاً جدًّا؛ يحقِّزه لمواصلةِ المسير، بقدر ما يتيقن من هذه الحقيقة)^(٣).

(١) (ترتيب المدارك وتقريب المسالك) ((١/١٣٧)).

(٢) (المصدر السابق) ((٢/٤١٣)).

(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: ٥٨، ٥٩).

قال أبو الحسن الماوردي: (وقلما تجدُ بالعلم معجبًا، وبما أدرك مفتخرًا، إلا من كان فيه مُقلًا مقصرًا؛ لأنَّه قد يجهل قدره، ويحسبُ أنَّه نال بالدخول فيه أكثره، فأما من كان فيه متوجهًا، ومنه مستكثرًا، فهو يعلم من بُعد غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصدُّه عن العجبِ به.

وقد قال الشعبي: العلم ثلاثة أشبار:

فمن نال شبرًا منه شمخ بأنفه، وظنَّ أنَّه ناله، ومن نال منه الشبر الثاني، صغرت إليه نفسه، وعلم أنَّه لم ينلّه.

وأما الشبر الثالث، فهيئات، لا يناله أحدٌ أبدًا^(١).

٧- عليك بالمدائمة والاستمرار:

قال عبدالرحمن بن مهدي: (إنما مثل صاحب الحديث بمنزلة السمسار، إذا غاب عن السوق خمسة أيامٍ تغيرَ بصره)^(٢).

(وعن وهب بن جرير: عن أبيه، قال: جلستُ إلى الحسنِ سبعِ سنين، لم أحرِم منه يومًا واحدًا، أصوم، وأذهبُ إليه)^(٣).

وعندما سُئل الإمام أحمد: إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال: حتى يموت^(٤).

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: ٨١).

(٢) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب (٢/٤١٩).

(٣) ((سير أعلام النبلاء)) ط الرسالة (٦/٣٦٢).

(٤) ((شرف أصحاب الحديث)) للخطيب (ص: ٦٨).

ورأى رجلاً مع الإمام أحمدَ محبَّره، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغت هذا المبلغَ وأنت إمامُ المسلمين! فقال: معي المحبرةُ إلى المقبرة^(١).

(وكثرَ من يطلبُ الحديثَ في زمنِ الأعمشِ، فقليل له: يا أبا محمدٍ، ما ترى ما أكثرهم! قال: لا تنظروا إلى أكثرهم، ثلثهم يموتون، وثلثهم يلحقون بالأعمال - يعني الوظائف - وثلثهم من كلِّ مئةٍ يفلحُ واحدٌ)^(٢).

ذكر الذهبيُّ في ترجمة الصَّفِيِّ الهنديِّ أنَّه روى له حديثين قال: (ليسا هما عندي، قرأهما عليه، ونفسه يحشرجُ في الصدرِ، فتؤيُّ يومئذٍ، عفا الله عنَّا وعنه أمين)^(٣).

وذكر الدلجِيُّ عن ابنِ مالكٍ شيخِ النُّحاةِ في عصره، أنَّه كان كثيرَ الإشغالِ (التدريس) والاشتغالِ، حتَّى أنَّه حفظَ في اليوم الذي مات فيه، خمسةَ شواهد^(٤).

وقرأ أبو الفرجِ ابنُ الجوزيِّ في آخرِ عمره، وهو في (الثمانين)، القراءاتِ العشرَ، هو وابنه يوسفُ، على ابنِ الباقلانيِّ.

قال الذهبيُّ مُعلِّقاً: (فانظرُ إلى هذه الهمةِ العاليةِ!)^(٥).

(١) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٥٨/٢).

(٢) ((الجامع)) للخطيب (رقم ٩٦).

(٣) ((معجم شيوخ)) الذهبي (ص: ٥١٧).

(٤) ((الفلاكة والمفلوكون)) لأحمد بن علي الدلجي (ص: ٧١).

(٥) ((سير أعلام النبلاء)) (٣٧٧/٢١).

٨- ارحل في طلب العلم:

(قال الشعبي: رحل مسروق في آية إلى البصرة، فسأل عن الذي يُفسرُها. فأخبر أنه بالشام، فتجهز إلى الشام، حتى سأل عنها.

وقال: ما رأيتُ أحدًا أطلب للعلم في الآفاق من مسروقٍ.

وقال سعيد بن المسيب: إنني كنتُ لأسيرُ الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

وقال أريدة التميمي: ما سمعتُ بأرضٍ فيها علمٌ إلا أتيتها^(١).

قال أبو الدرداء: (لو أعيتني آيةٌ من كتاب الله، فلم أجد أحدًا يفتحها عليّ إلا رجلاً بريك الغمادٍ لرحلتُ إليه)^(٢).

وقال أحمد بن حنبل: (لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه، رحل إلى اليمن، وإلى مصر، وإلى الشام، والبصرة، والكوفة، وكان من زوارة العلم وأهل ذلك، كتب عن الصغار والكبار)^(٣).

٩- لا تستنكف عن الاستفادة ممن دونك:

قال ابن جماعة: (لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصّبًا أو نسبًا أو سنًا، بل يكون حريصًا على الفائدة حيث كانت، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها... وكان جماعة من السلف

(١) ((الحث على طلب العلم)) للعسكري (ص: ٦١-٦٢).

(٢) ((فضائل القرآن)) للقاسم بن سلام (ص: ١٠١).

(٣) ((الرحلة في طلب الحديث)) للخطيب البغدادي (ص: ١٩٦).

يَسْتَفِيدُونَ مِنْ طَلِبَتِهِمْ مَا لَيْسَ عِنْدَهُمْ، قَالَ الْحَمِيدِيُّ، وَهُوَ تَلْمِيزُ الشَّافِعِيِّ: صَحِبْتُ الشَّافِعِيَّ مِنْ مَكَّةَ إِلَى مِصْرَ فَكُنْتُ أَسْتَفِيدُ مِنْهُ الْمَسَائِلَ، وَكَانَ يَسْتَفِيدُ مِنِّي الْحَدِيثَ.

وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ: قال لنا الشافعيُّ: أنتم أعلمُ بالحدِيثِ مِنِّي، فإذا صحَّ عندكم الحدِيثُ فقولوا لنا حتَّى آخذَ به^(١).



(١) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة (ص: ٢٨، ٢٩).

خامساً: إضاءات حول الكتب

١ - أهميّة الكتاب:

قال: أبو الطيّب المتنبّي:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنْيَا سَرَجُ سَابِحٍ وخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ
يقول: (إنَّ سَرَجَ الفَرَسِ، هو أعزُّ مكانٍ؛ لأنَّه يُمتطى لطلبِ المعالي، أو
محاربةِ الأعداءِ؛ لدفعِ شرِّهم؛ أو للهربِ من الضَّيْمِ؛ واحتمالِ الدُّلِّ، وأنَّ
الكتابَ هو خيرُ جليسٍ؛ لأنَّه مأمونٌ الجانبِ؛ فلا أذى ولا شرٌّ؛ ولا يحتاجُ
في مجالستِهِ إلى مؤونةٍ؛ فضلاً أنه يُفادُ من آدابهِ وكلِّ ما يحتويه)^(١).

الكتابُ: (هو النَّدِيمُ الكَرِيمُ، والحِذْنُ الأَمِينُ، البريءُ مِنَ الذُّنُوبِ، السَّلِيمُ
من العيوبِ، الَّذِي إنْ أذِنْتَهُ لَمْ يُباعِدْكَ، وإنْ أقصَيْتَهُ لَمْ يُعاوِدْكَ، وإنْ
واصلتَهُ حَمَدْتَهُ، وإنْ هاجرتَهُ أَمِنْتَهُ، وإنْ اسْتَنْطَقْتَهُ أَسْمَعَكَ، وإنْ اسْتَكْفَيْتَهُ
أَقْنَعَكَ، وإنْ اسْتَكْفَفْتَهُ كَفَّ، وإنْ اسْتَنْقَلْتَهُ خَفَّ، وإنْ دَعَوْتَهُ لَبَّأكَ، وإنْ
اسْتَعْفَيْتَهُ أَعْفَاكَ، لا يَعصِي لَكَ أمراً، ولا يُحْمِلُكَ إصراً، عِرْضُكَ مَعَهُ وافِرٌ،
وهو لِسِرِّكَ غيرُ ناشِرٍ، أنيقُ المنظرِ، طيبُ المَخْبَرِ، جميلُ المشاهِدِ، كثيرُ
المَحامِدِ، يملأُ العيونَ قُرَّةً، والنفوسَ مَسْرَّةً، يُضحِكُ الحزينَ اللَّهْفَ، ويُلهي
العَضبانَ الأَسْفَ، يَجْتَلِبُ السُّرُورَ، وَيَشْرَحُ الصُّدُورَ، يَطْرُدُ الهُمومَ والأحزانَ،
ويَنفِي بواعثَ الأشجانِ، جُباورَتُهُ أحسنُ جُباورَةٍ، ومُسامرَتُهُ أحلى مسامرَةٍ،
وجُجالستُهُ أنفعُ مجالسَةٍ، ومُؤانستُهُ أمتعُ مُؤانسةٍ، فيه مدعاةٌ إلى الطربِ،

(١) ((شرح ديوان المتنبّي)) للبرقوقي (٣١٩/١).

وَمَسَلَاةٌ مِنَ الْوَصَبِ، وَتَعَلَّةٌ لِذِي الْعَرَامِ، وَتَلْهِيَةٌ لِقَلْبِ الْمُسْتَهَامِ، وَأُنْسٌ
لِلْمُسْتَوْحِشِ، وَرِيٌّ لِلْمَتَعَطِّشِ، وَعِمَارَةٌ لِلْمَجَالِسِ، وَحَلِيَّةٌ لِلْمُؤَانِسِ، تُلْقِي
الْقُلُوبَ مُحَبَّبَتَهَا عَلَيْهِ، وَتَمِيلُ النُّفُوسَ بِكَلِمَتِهَا إِلَيْهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَبَاتِ
الْقُلُوبِ حِجَابٌ، وَلَا يُغْلَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سُؤِيدَاوَاتِهَا بَابٌ^(١).

قَالَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ: (وَمَعَ مَا فِي الْكُتُبِ مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَمِيمَةِ،
وَالْمَفَاخِرِ الْعَظِيمَةِ، فَهِيَ أَكْرَمُ مَالٍ، وَأَنْفَسُ جَمَالٍ، وَالْكِتَابُ أَمْنٌ جَلِيسٍ،
وَأَسْرٌ أُنَيْسٍ، وَأَسْلَمٌ نَدِيمٍ، وَأَفْصَحُ كَلِيمٍ)^(٢).

وَقَدْ أوردَ الْخَطِيبُ بِإِسْنَادِهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا} [الكهف: ٨٢]،
قَالَ: (مَا كَانَ ذَلِكَ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً)، قَالَ: (صَحْفًا عِلْمًا)، وَعَلَّقَ الْحَسَنُ بْنُ
صَالِحٍ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: (وَأَيُّ كَنْزٍ أَفْضَلُ مِنَ الْعِلْمِ!)^(٣).

(قَالَتِ الْحِكْمَاءُ: الْكِتَابُ نِعَمَ الْجَلِيسِ وَالذُّخْرُ، إِنْ شِئْتَ أَهْلُكَ بَوَادِرُهُ،
وَأَضْحَكُكَ نَوَادِرُهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَشْجَتَكَ مَوَاعِظُهُ، وَإِنْ شِئْتَ تَعَجَّبْتَ مِنْ
غَرَائِبِ فَوَائِدِهِ، وَهُوَ يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ، وَالنَّاقِصَ وَالْوَافِرَ، وَالْغَائِبَ
وَالْحَاضِرَ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ، وَالْجِنْسَ وَضِدَّهُ، وَهُوَ مَيِّتٌ يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى،
وَيُتْرَجُّمُ عَنِ الْأَحْيَاءِ، وَهُوَ مُؤَنَسٌ يَنْشَطُ بِنَشَاطِكَ، وَيَنَامُ بِنَوْمِكَ، وَلَا يَنْطِقُ
إِلَّا بِمَا تَهْوَى)^(٤).

(١) ((مطالع البدور)) للغزولي (١٧٥/٢، ١٧٦).

(٢) ((تقييد العلم)) للخطيب، بتصرف (ص: ٢٩٩).

(٣) (المصدر السابق) بتصرف (ص: ٢٩٣).

(٤) ((الحيوان)) للجاحظ، بتصرف (١/٣٨-٤٠).

الكتاب: (مَعَ حِقَّةِ نَقْلِهِ، وَصِغَرِ حَجْمِهِ؛ صَامَتْ مَا أَسَكَّتَهُ، وَبَلِيغٌ مَا اسْتَنْطَقْتَهُ، وَمَنْ لَكَ بِمَسَامِرٍ لَا يَبْتَدِيكَ فِي حَالِ شُغْلِكَ، وَيَدْعُوكَ فِي أَوْقَاتِ نَشَاطِكَ، وَلَا يُجَوِّحُكَ إِلَى التَّحْمُلِ لَهُ، وَالتَّدْمِيمِ مِنْهُ، وَمَنْ لَكَ بِزَائِرٍ إِنْ شِئْتَ جَعَلَ زِيَارَتَهُ غَيْبًا، وَوُرُودَهُ حَمْسًا، وَإِنْ شِئْتَ لَزِمَكَ لُزُومَ ظِلِّكَ، وَكَانَ مِنْكَ مَكَانَ بَعْضِكَ)^(١).

وقال الجاحظ: (ورائَةُ الكُتُبِ الشَّرِيفَةِ، والأبوابِ الرَّفِيعَةِ، مَنبَهَةٌ لِلْمُورِثِ، وَكَتْرٌ عِنْدَ الْوَارِثِ، إِلَّا أَنَّهُ كَنْزٌ لَا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ، وَلَا حَقُّ السُّلْطَانِ، وَإِذَا كَانَتِ الْكَنْزُورُ جَامِدَةً، يَنْقُصُهَا مَا أُخِذَ مِنْهَا، كَانَ ذَلِكَ الْكَنْزُ مَانِعًا يَزِيدُهُ مَا أُخِذَ مِنْهُ؛ وَلَا يَزَالُ بِهَا الْمُورِثُ مَذْكُورًا فِي الْحُكْمَاءِ، وَمُنَوَّهًا بِاسْمِهِ فِي الْأَسْمَاءِ، وَإِمَامًا مَتَّبِعًا، وَعَلَمًا مَنْصُوبًا، فَلَا يَزَالُ الْوَارِثُ مَحْفُوظًا، وَمِنْ أَجْلِهِ مَحْبُوبًا مَمْنُوعًا، وَلَا تَزَالُ تِلْكَ الْحَبَّةُ نَامِيَةً، مَا كَانَتْ تِلْكَ الْفَوَائِدُ قَائِمَةً؛ وَلَنْ تَزَالَ فَوَائِدُهَا مَوْجُودَةً، مَا كَانَتِ الدَّارُ دَارَ حَاجَةٍ، وَلَنْ يَزَالَ مِنْ تَعْظِيمِهَا فِي الْقُلُوبِ أَثَرٌ، مَا كَانَ مِنْ فَوَائِدِهَا عَلَى النَّاسِ أَثَرٌ)^(٢).

وقال الشيخ حاتم العوي: (أَمَّا طَالِبُ الْعِلْمِ الَّذِي يَقُولُ: يُعْنِينِي كِتَابٌ عَنِ كِتَابٍ، فَلَيْسَ بِطَالِبِ عِلْمٍ! وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ طَالِبَ عِلْمٍ، فَإِنَّهُ لَا يُعْنِي كِتَابٌ عَنِ كِتَابٍ قَطُّ، بَلْ: لَا تُعْنِي طَبْعَةٌ عَنِ طَبْعَةٍ أُخْرَى لَهُ.

وطلَبُ الْعِلْمِ الَّذِي يَقُولُ: لَا أَشْتَرِي كِتَابًا، حَتَّى أَقْرَأَ وَأَدْرَسَ الْكِتَابَ الَّذِي عِنْدِي، فَلَا يُفْلِحُ فِي الْعِلْمِ أَبَدًا! فَإِنَّ شِرَاءَ الْكُتُبِ وَحَدَهُ عِبَادَةٌ يُوجِرُ

(١) ((الحيوان)) للجاحظ (٥٠/١).

(٢) ((المصدر السابق)) (١٠٠/١).

عليها فاعلها، لوجودها، منها: أمّا ممّا لا ينقطع العملُ به بعد الموت، حيثُ تبقى فينتفعُ بها من بعده.

ثمّ إنّ تكوين المكتبة العامرة يُشبه طلب العلم من جهتين:

الأولى: كما أنّ طلب العلم لا يكون جملةً في أيام وليالٍ، كذلك تكوين المكتبة، لا يمكن أن يتمّ إلا من خلال مُتابعةٍ للجديد من الكتب في عالم المطبوعات؛ حيثُ إنّ الكتب كثيرةٌ جدًّا، وهناك كتبٌ نادرةٌ، وكتبٌ سرعانَ ما تنفدُ من الأسواق، فمن لم يُبادِرْ بشرائها فاتته.

الثانية: أنّ طلب العلم يُلجئ طالب العلم إلى دراسة مسائل ما كان يظنُّ قبل ذلك أنه سيحتاجُ دراستها، وكذلك تكوين المكتبة؛ فإنَّ شراءَ الكتاب ومعرفتك لما فيه يدلُّك على كتابٍ آخر، ربّما لم تسمع به، وربّما سمعت به، ولم تظنَّ أنّك محتاجٌ إليه؛ فالحاجةُ للكتب تنمو مع نمو طلبك للعلم^(١).

٢ - عشقٌ عجيبٌ للكتب:

(بيعت كتب ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظ أبو العلاء الهمدانيُّ، فنادوا على قطعةٍ منها: ستين دينارًا، فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستين دينارًا، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس. فخرج الحافظ، واستقبل طريق همدان، فوصل، فنادى على دارٍ له، فبلغت ستين دينارًا. فقال: بيعوا. قالوا: تبلغ أكثر من ذلك. قال: بيعوا. فباعوا الدار بستين دينارًا فقبضها، ثمّ رجع إلى بغداد. فدخلها يوم الخميس، فوفّي ثمن الكتاب.

(١) ((نصائح منهجية)) لحاتم العوني، بتصرف (ص: ٧٣-٧٤).

ولم يشعُر أحدٌ بحاله إلا بعد مُدَّةٍ^(١).

(وكانَ لأبي الحسنِ القاليِّ، الأديبِ اللغويِّ، نسخةٌ في غايةِ الجودةِ من كتابِ (الجمهرة) لابنِ دُرَيْدٍ، دعتهُ الحاجةُ إلى بيعها، فاشترها الشريفُ المرتضى بستينَ دينارًا، فلمَّا تصفَّحها، وجدَ بها أبياتًا بخطِّ بائعها:

أَنِسْتُ بِهَا عَشْرِينَ حَوْلًا وَبِعْتُهَا لَقَدْ طَالَ وَجَدِي بَعْدَهَا وَحِينِي
وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنِّي سَأَبِيعُهَا وَلَوْ خَلَدْتَنِي فِي السُّجُونِ دُيُونِي
وَلَكِنْ لَضَعْفٍ وَافْتِقَارٍ وَصِيبَةٍ صِغَارٍ عَلَيْهِمْ تَسْتَهْلُ شُؤُونِي
فَقَلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَابِقَ عَبْرَةٍ مَقَالَةَ مَكْوِيِّ الْفؤَادِ حَزِينِ
وَقَدْ تُخْرِجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ كِرَائِمَ مَنْ رَبِّ بِهِنَّ ضَمِينِ

فردَّ الشريفُ الكتابَ عليه، ووهبه المالَ)^(٢).

وهذا (المستنصرُ باللهِ الأمويُّ، صاحبُ الأندلسِ، كانَ محبًّا للعلمِ والعلما، جمعَ من الكتبِ ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ كثرةً ونفاً، معَ العلمِ والنباهةِ.

وكانَ يَسْتَحْلِبُ المصنِّفاتِ من الأقاليمِ والنواحي، باذلاً فيها ما أمكنَ من الأموالِ، حتَّى ضاقتَ عنها خزائنه، وكانَ ذا غرامٍ بها، قد آثرَ ذلكَ على لذاتِ الملوكِ)^(٣).

قالَ ابنُ الأَبارِ: (وقلَّ ما نجدُ له كتابًا من خزائنه، إلا وله فيه قراءةٌ، أو

(١) ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (١/٣٢٨).

(٢) ((وفيات الأعيان)) لابن خلكان، بتصرف (٣/٣١٦).

(٣) ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٢٦/٣٥٨-٣٥٩)، بتصرف.

نظرٌ في أيِّ فنٍّ كان، ويكتُبُ فيه نسبَ المؤلِّفِ، ومولده، ووفاته، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكادُ توجدُ إلاَّ عنده؛ لعنايته بهذا الشأن^(١).

و(كانَ أبو محمد، عبدُاللهِ بنُ أحمدَ بنِ الخشَّابِ النَّحويِّ، له كتبٌ كثيرةٌ إلى الغاية، ما لا يدخلُ تحتَ الحصرِ، ومن خُطوطِ الفضلاءِ، وأجزاءِ الحديثِ، شيئاً كثيراً).

وقد ذكر ابنُ النجَّارِ، أنَّه لم يمتَّ أحدٌ من أهلِ العلمِ، وأصحابِ الحديثِ إلاَّ وكانَ يشتري كتبه كلَّها، فحصلتْ أصولُ المشايخِ عنده.

وكانَ لا يخلو كُفُّه من كتبِ العلمِ، وكانَ يُدبِّمُ القراءةَ من غيرِ فُتُورٍ^(٢).

و(فارقَ أبو العبَّاسِ - أحمدُ بنُ عبدِالرَّحمنِ الخزرجيِّ - الدُّنيا، ولمْ تكنْ همُّه مصروفةً، إلاَّ إلى العلمِ وأسبابه، اقتنى من الكتبِ جملةً وافرةً، سوى ما نَسَخَ بخطِّه الرِّائقِ، وأمْتَحَنَ فيها مرَّاتٍ بضروبٍ من الجوائحِ، كالغرقِ، والنَّهبِ، بغرناطةَ، فقدَ كانَ اسْتَصْحَبَ إليها من مرَّاكشٍ خمسةَ أحمالٍ، ولمَّا فصلَ عنها تركها معَ ما صارَ له منها مدَّةٌ مُقامه بها، فأتى عليه النَّهبُ في الكائنةِ على أهلِ غرناطةَ، وفرَّ معظمُ الناسِ عن منازلهم، فكانَ ممَّنْ فرَّ عن منزله عيالُ أبي العبَّاسِ هذا، وبعضُ ولده الذين تركهم بها حينَ توجَّهَ إلى مرَّاكشَ، فنهبَ ما كانَ بداره من كتبٍ وغيرها)^(٣).

قالَ الحضرميُّ: (أقمتُ مرَّةً بقرطبةَ، ولازمتُ سوقَ كتبها مدَّةً، أترقبُ

(١) ((مرآة الزمان)) لسبط ابن الجوزي (ص: ٢٣٢).

(٢) ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (١/٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠).

(٣) ((الذيل والتكملة)) للمراكشي، بتصرف (١/٢٢٩).

فيها وقوع كتابٍ كان لي بطلبه اعتناءً، إلى أن وقع وهو بخطٌ جيّدٍ، وتسفيرٍ [تجليدٍ] مريحٍ، ففرحتُ به أشدَّ الفرح، فجعلتُ أزيدُ في ثمنه، فيرجعُ إليَّ المنادي بالزيادةِ عليّ، إلى أن بلغَ فوقَ حدِّه، فقلتُ له: يا هذا، أرني مَنْ يَزِيدُ في هذا الكتابِ، حتَّى بلغَهُ إلى ما لا يُساوي. قال: فأراني شخصاً عليه لباسُ رياسةٍ، فدنوتُ منه، وقلتُ له: أعزَّ اللهُ سيِّدنا الفقيه، إن كانَ لك غرضٌ في هذا الكتابِ تركتهُ لك، فقد بلغتُ به الزيادةُ بيننا فوقَ حدِّه.

قال: فقال لي: لستُ بفقيهٍ، ولا أدري ما فيه، ولكني أقمْتُ خزانةَ كتبٍ، واحتفلتُ فيها؛ لأتحمَّلَ بها بينَ أعيانِ البلدِ، وبقيَ فيها موضعٌ يسعُ هذا الكتابِ، فلمَّا رأيتُه حسنَ الخطِّ جيّدَ التَّجليدِ استحسنتُه، ولم أبالِ بما أزيدُ فيه، والحمدُ لله على ما أنعمَ به من الرِّزقِ، فهو كثيرٌ^(١).

علقَ الشيخُ عبدُالكريمِ الخُصيرُ بقوله:

(إذا وصلَ جمعُ الكتبِ والعنايةُ بها إلى هذا الحدِّ، صارتُ ممَّا يُلهي ويُشغلُ، فيدخلُ دُخولاً أوَّلِيًّا في قوله تعالى: {أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر: ١] لأنَّه مجردُ تكاثرٍ)^(٢).

(قال الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ: كانتُ عندي صناديقُ من كتبٍ ذهبَتْ، لو بقيتُ لكانَ أحبَّ إليَّ من أهلي ومالي!)^(٣).

وقالَ الحافظُ زكيُّ الدينِ عبدُالعظيمِ: (كانَ السَّلَفُ مُعْرِىً بجمعِ الكتبِ،

(١) ((نفع الطيب)) للمقري (٤٦٣/١).

(٢) ((محاضرة كيف يبني طالب العلم مكتبته)).

(٣) ((ترتيب المدارك وتقريب المسالك)) (١٣٧/١).

والاستكثار منها، وما كَانَ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَالِ يُخْرِجُهُ فِي شَرَائِهَا.

وَكَانَ عِنْدَهُ خَزَائِنُ كِتَابٍ، وَلَا يَتَفَرَّغُ لِلنَّظَرِ فِيهَا، فَلَمَّا مَاتَ وَجَدُوا مَعْظَمَ الْكُتُبِ فِي الْخَزَائِنِ قَدْ عَفِنَتْ، وَالتَّصَقَّ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ؛ لِنَدَاوَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَكَانُوا يَسْتَحْلِصُونَهَا بِالْفَأْسِ فَتَلِفَ أَكْثَرُهَا^(١).

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: (نَزَلْنَا بِمَكَّةَ دَارًا، وَكَانَ فِيهَا شَيْخٌ يُكْنَى بِأَبِي بَكْرٍ بْنِ سَمَاعَةَ - وَكَانَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ - قَالَ: نَزَلَ عَلَيْنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَأَنَا غُلَامٌ، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: الرَّمَّ هَذَا الرَّجُلُ فَاخْذُمُهُ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ. فَكُنْتُ أَحْدُمُهُ، وَكَانَ يُخْرِجُ يَطْلُبُ الْحَدِيثَ، فَسَرِقَ مِتَاعَهُ، وَقِمَاشَهُ، فَجَاءَ يَوْمًا، فَقَالَتْ لَهُ أُمِّي: دَخَلَ عَلَيْكَ السُّرَّاقُ، فَسَرَقُوا قِمَاشَكَ. فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ الْأُلُوحَ؟ فَقَالَتْ لَهُ أُمِّي: فِي الطَّاقِ. وَمَا سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ غَيْرِهَا)^(٢).

قَالَ ابْنُ الْجَهْمِ: (إِذَا اسْتَحْسَنْتُ الْكِتَابَ، وَاسْتَجَدَّتُهُ، وَرَجَوْتُ مِنْهُ الْفَائِدَةَ، وَرَأَيْتُ ذَلِكَ فِيهِ، فَلَوْ تَرَانِي وَأَنَا سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، أَنْظُرُكُمْ بَقِيَّ مِنْ وَرَقِهِ؛ مَخَافَةَ اسْتِنْفَادِهِ، وَانْقِطَاعِ الْمَادَّةِ مِنْ قَبْلِهِ، وَإِنْ كَانَ الْمَصْحَفُ عَظِيمَ الْحَجْمِ، كَثِيرَ الْوَرَقِ، كَثِيرَ الْعَدَدِ، فَقَدْ تَمَّ عَيْشِي، وَكَمَلَ سُورِي.

وَذَكَرَ الْعَتِيُّ كِتَابًا لِبَعْضِ الْقَدَمَاءِ فَقَالَ: لَوْلَا طَوْلُهُ وَكَثْرَتُهُ وَرَقَهُ لَنَسَخْتُهُ. فَقَالَ ابْنُ الْجَهْمِ: لَكِنِّي مَا رَغَبْتِي فِيهِ إِلَّا الَّذِي زَهَّدَكَ فِيهِ؛ وَمَا قَرَأْتُ قَطُّ كِتَابًا كَبِيرًا، فَأَخْلَانِي مِنْ فَائِدَةٍ، وَمَا أَحْصَيْتُكُمْ قَرَأْتُ مِنْ صِغَارِ الْكُتُبِ،

(١) ((تاريخ الإسلام)) (٤٠/٢٠٤-٢٠٥).

(٢) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٩/١٧٩).

فخرجتُ منها كما دخلتُ^(١).

قال ابنُ الجوزيِّ: وبلغني: أنه -أي الحافظُ أبا العلاء الهمدانيّ- رُئي في المنامِ في مدينةٍ جميعُ جدرانِها من الكُتُب، وحوْلُه كُتُبٌ لا تُحْدُ، وهو مشغولٌ بمطالعتها، فقيل له: ما هذه الكُتُب؟ قال: سألتُ الله تعالى أن يَشغَلَنِي بما كنتُ أَشغَلُ به في الدُّنيا، فأعطاني^(٢).

قال أبو منصورٍ الثعالبيُّ: (وكثيراً ما أدكرني أكلُ الوجبةِ وأنا أنظرُ في كتابٍ جديدٍ وقع إليّ ولا أصبرُ عنه إلى وقتِ فراغي من الأكل؛ وسمعتُ أبا نصرٍ سهلَ بنَ المذمال يقول: كثيراً ما أفعلُ مثلَ ذلك)^(٣).

قال المقرئُ في وصفِ قرطبةَ:

(وهي أكثرُ بلادِ الأندلسِ كتباً، وأشدُّ الناسِ اعتناءً بخزائنِ الكُتُب، صارَ ذلكَ عندهم من آلاتِ التعيين، والرئاسة، حتى إنَّ الرَّئيسَ منهم الَّذي لا تكونُ عندهُ معرفةٌ، يحتفلُ في أن تكونَ في بيتهِ خزانةُ كتبٍ، وينتخبُ فيها، ليسَ إلاَّ لأنَّ يُقالَ: فلانٌ عندهُ خزانةُ كتبٍ، والكتابُ الفلانيُّ ليسَ هو عندَ أحدٍ غيرِه، والكتابُ الَّذي هو بخطُّ فلانٍ، قد حصَّله وظفَّره به)^(٤).

وعن محمدِ بنِ سليمانَ الجوهريّ قال: (كنا نصحبُ الجاحظَ على سائرِ أحوالِه، من جدِّ، وهزلٍ، قال: فخرجنا يوماً لنزهةٍ، فبينما نحنُ على بابِ

(١) ((المحسن والمسائ)) لإبراهيم البيهقي (١٣/١).

(٢) ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢٧٨/٢).

(٣) ((اللطائف والظرائف)) (٦٦/١).

(٤) ((نفع الطيب)) للمقرئ (٤٦٢/١).

جامع البصرة، ننتظر شيئاً أردناهُ، إذ عارضتُنَا امرأةٌ، معها أوراقٌ مقطّعةٌ، فعرضتْ ذلكَ علينا، فلمْ نجدْ فيها طائلاً، فتركناها وانصرفنا، وتخلّف معها الجاحظُ، ونحْنُ ننتظرُه، فأطال، ثم رأيناهُ قد ورنَ لها شيئاً، وأخذَ الأوراقَ؛ وقال: انتظروني. ومضى بها إلى منزله، فلما عادَ أخذنا نخرأُ به، ونقول: فُزْتُ بقطعةٍ من العلمِ وافيةٍ. وضحكنا، فقال: أنتم حمقى، والله إنَّ فيها ما لا يوجدُ إلاَّ فيها، ولكنكم جهالٌ لا تعرفون النَّفيسَ من الخسيسِ^(١).

و(كانَ -أي أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ عبدِالرحمنِ القَصْرِيِّ- فقيهاً، صالحاً، ورعاً، سريعَ الدّمةِ، له عنايةٌ بالعلمِ، والرّواياتِ، وتصحيحِ الكتبِ، وجمعها، وكانَ يقولُ: لي أربعونَ سنةً ما جفَّ لي قلمٌ - يعني من كثرةِ ما يَسْخُ بالليلِ والنهارِ- وكانَ زُبماً باعَ بعضَ ثيابه، واشترى بثمانه كتاباً، أو زُفوقاً، لنسخِ الكتبِ!

قالَ أبو بكرٍ المالكيُّ: ووصلَ إلى مدينةِ سوسةَ برسمِ زيارةِ يحيى بنِ عمرَ، فوجده أَلَفَ كتاباً، فلمْ يجدْ ما يشتري بهِ رقاً يكتبُه فيه، فباعَ قميصَه الذي كانَ عليه! واشترى بثمانه زُفوقاً، وكتبَ الكتابَ وقابله، وأتى بهِ معه إلى القيروانِ^(٢).

قالَ ياقوتُ الحمويُّ عن الحسنِ بنِ حمدونَ: (كانَ منَ المحبِّينَ للكتبِ، واقتنائها، والمبالغينَ في تحصيلها وشرائها، وحصلَ له من أصولها المُتقنة، وأمّهاها المعينة، ما لم يحصلْ لأحدٍ، وكانَ مع اغتباطه بالكتبِ ومنافسته،

(١) (تقييد العلم) للخطيب البغدادي (ص: ١٣٨).

(٢) (صفحات من صبر العلماء) لأبي غدة (ص: ١٩٣، ١٩٤).

ومناقشته فيها، جوادًا بإعارتها، ولقد قال لي يومًا، وقد عَجِبْتُ من مسارعتِهِ إلى إعارتها للطلبة: ما بَخَلْتُ بإعارة كتابٍ قطُّ، ولا أخذتُ عليه رهنًا، ولا أعلمُ أَنَّهُ مع ذلكَ فَقَدَ كتابًا في عاريةٍ قطُّ، فقلتُ: الأعمالُ بالنياتِ، وخُلُوصُ نِيَّتِكَ في إعارتها لله، حفظها عليك^(١).

قال الشيخُ بكرِيُّ الكاتبُ في ترجمته للشيخ أحمد بن قاسم الشهيرِ بالحجَّارِ: (وبلغتُ قيمةَ مكتبته بعدَ موته، أربعينَ ألفًا، معَ أمتها بيعتُ بغيرِ أثمانها! وكانَ رحمه الله يحبُّ اقتناءَ الكتبِ، حتَّى سَمِعنا أَنَّهُ رأى كتابًا يُباعُ، ولم يكنْ معه دَراهمُ، وكانَ عليه ثيابٌ، فنَزَعَ بعضها وباعه واشترى الكتابَ في الحالِ)^(٢).

قال أبو هفانَ: (لم أَر قطُّ ولا سمعتُ مَنْ أَحَبَّ الكتبَ والعلومَ أَكثَرَ مِنْ ثلاثةٍ: الجاحظِ، والفتحِ بنِ خاقانَ، وإسماعيلَ بنِ إسحاقِ القاضي، فأما الجاحظُ فَإِنَّهُ كانَ إذا وَقَعَ في يده كتابٌ قرأهُ من أولِهِ إلى آخرِهِ، أيُّ كتابٍ كانَ، حتَّى إِنَّهُ كانَ يَكْتَرِي دكاكينَ الوراقينَ، ويبيتُ فيها للنَّظرِ.

وأما إسماعيلُ بنُ إسحاقِ القاضي؛ فَإِنِّي ما دخلتُ عليه قطُّ إِلَّا رأيتُهُ وفي يده كتابٌ ينظرُ فيه، أو يُقَلِّبُ الكُتُبَ؛ لطلبِ كتابٍ ينظرُ فيه، أو ينفِضُ الكتبَ)^(٣).

في ترجمة العلامةِ النَّحويِّ، أحمدَ بنِ يحيى، المعروفِ بثعلبٍ، أن (سببَ وفاته؛ أَنَّهُ خرجَ من الجامعِ يومَ الجُمُعَةِ بعدَ العصرِ، وكانَ قد لحقَهُ صَمَمٌ لا

(١) ((معجم الأديباء)) لياقوت الحموي، بتصرف (١٠١٣/٣).

(٢) ((صفحات من صبر العلماء)) لأبي غدة (ص: ٢٧٨).

(٣) ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٣٧٥/١٨).

يَسْمَعُ إِلَّا بَعْدَ تَعَبٍ، وَكَانَ فِي يَدِهِ كِتَابٌ يَنْظُرُ فِيهِ فِي الطَّرِيقِ، فَصَدَمَتْهُ
فَرَسٌ، فَأَلْقَتْهُ فِي هُوَّةٍ، فَأُخْرِجَ مِنْهَا وَهُوَ كَالْمَخْتَلِطِ، فَحُمِلَ إِلَى مَنْزِلِهِ عَلَى
تِلْكَ الْحَالِ، وَهُوَ يَتَأَوُّهُ مِنْ رَأْسِهِ، فَمَاتَ ثَانِيَ يَوْمٍ^(١).

قال الشيخ محمد جمال الدين القاسمي:

(صادفَ ليلَةَ أُهْدِيَّ إِلَى كِتَابٍ وَكُنْتُ فِي صُدَاعٍ، وَقَدْ عَقَدَ آيَ حَوْلِي
الاجتماعَ، وَأَنَا أَقَاسِي مِنَ الْآلَامِ، مَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْكَلَامِ، فَلَمَّا نَاوَأْنِيهِ شَقِيقِي
بَعْدَ الْعِشَاءِ، رَأَيْتُنِي وَقَدْ سَرَى إِلَيَّ نَسِيمُ النَّشَاطِ وَالشِّفَاءِ، فَغَالَبْتُ نَفْسِي،
وَنَبَّهْتُ لِمَطَالَعَتِهِ قَلْبِي وَحَسِّي، وَقُلْتُ: لَأَتَأَسَّرَنَّ بِشَيْخِ الْإِسْلَامِ الْأَنْصَارِيِّ؛
فَقَدْ كَانَ يَسْتَشْفِي بِمَطَالَعَةِ الْعِلْمِ، وَمُذَاكِرَةِ أُولَى الْفِطْنَةِ وَالْفَهْمِ، وَبَقِيَتْ
أَسَامِرُهُ مَعْظَمَ اللَّيْلِ، وَهُوَ يَرِقُّ لِي، وَيُئِيلُنِي مِنْ مُنَادِمَتِهِ أَعْظَمَ النَّيْلِ، وَقَدْ
أَصْبَحْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمَا بِي أَلْمُ!)^(٢).

❖ مِنَ الَّذِينَ عُنُوا بِجَمْعِ الْكُتُبِ:

- (القاضي الفاضل الكاتب المشهور - عبد الرحيم بن علي اللخمي -
وكان عنده من الكتب ما يملأ البيوت حتى كان عنده من (صحاح
الجوهري) ست عشرة نسخة).

- الوزير القفطي، اشتهر بحبه للكتب، وكلفه بجمعها، ووصفه عصره
ياقوت الحموي، بأنه جماعة للكتب، حريص عليها.

(١) ((وفيات الأعيان)) لابن خلكان (١/١٠٤).

(٢) (الرسائل المتبادلة، للعجمي، بتصرف) (ص ١٢١، ١٢٠).

- الصاحبُ بنُ عبادٍ، وكانَ يملكُ هو والقاضي الفاضلُ من كُتُبِياتِ خزائنِ الكتبِ القديمةِ، فقدَ تجاوزَ عددُ كتبِ كلِّ منهما (١٠٠٠٠٠) مجلدي.
- أبو مطرّفِ القاضي بقرطبةَ، جمعَ منِ الكتبِ ما لم يجمعه أحدٌ من أهلِ عصرِهِ في الأندلسِ، وكانَ عنده سنّةٌ ورّاقينَ، ينسخونَ له باستمرارٍ^(١).

٣- شراءُ الكتبِ:

(على الإنسانِ أنْ يكونَ متوسطاً في أمورِهِ كلّها، فما يحتاجُه منِ الكتبِ يفتنيه، وما ينفعُه عندَ المراجعةِ يقتنيه، أمّا أن يجمعَ كلَّ كتابٍ يسمعُ عنه يحتاجُه، أو لا يحتاجُه؛ ليُقالَ: إنَّ عندهُ منِ كلِّ كتابٍ نسخةً، فهذه مصيبةٌ! إنَّ الفائدةَ منِ جمعِ الكتبِ تحصيلُ العلمِ الشرعيِّ، والعلمُ الشرعيُّ منِ أمورِ الأخرى المحضّةِ، التي لا يجوزُ التشريكُ فيها، فإذا دخلتِ النوايا مثل أن يُقالَ: إنَّ عندَ فلانٍ مكتبةٌ، أو عنده أكبرُ مكتبةٍ خاصّةٍ، فهذه حقيقةٌ مرّةً، وقدحٌ ظاهرٌ في الإخلاصِ، وإنَّ وُجدت عندَ بعضِ المتعلّمينَ، نسألُ الله السّلامةَ والعافية)^(٢).

قال الخطيّبُ: (يَبغِي لطالبِ العلمِ أن يَعتنيَ بتحصيلِ الكُتُبِ المُحتاجِ إليها ما أمكنه شراءً، وإلا فإجارةٌ أو عاريةٌ، ولا يجعلُ تحصيلها، وكثرتها حظه من العلمِ، وجمعها نصيبه من الفهمِ، كما يفعله كثيرٌ من المنتحلينَ للفقهِ والحديثِ).

(١) من محاضرة ((كيف يبني طالب العلم مكتبته)) للخضير، بتصرف.

(٢) ((المصدر السابق)).

وقد أحسنَ القائلُ:

إذا لم تكن حافظًا واعيًا فجمعك للكتب لا ينفع
وينبغي للمستعير أن يشكر للمُعير، ويُجزّيه خيرًا، ولا يُطيلَ مقامَ الكتابِ
عنده من غير حاجةٍ، ولا يُحشّيه، ولا يكتب شيئًا فيه، إلا إذا علمَ رضا
صاحبه، ولا يُعيرَ غيره، ولا يُودعه لغير ضرورةٍ، ولا ينسخَ منه بغير إذنِ
صاحبه^(١).

قال ابنُ تيميةَ: (وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعابًا،
فمن نورَ الله قلبه هداة بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزدَه كثرةُ الكتبِ
إلا حيرةً وضلالًا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي لبيدٍ الأنصاريِّ:
(أولست التوراةُ والإنجيلُ عند اليهود والنصارى؟ فماذا تُغني عنهم؟)).^(٢).

وقال الجاحظُ: (الإنسان لا يعلم حتى يكثرَ سماعه، ولا بد من أن تكونَ
كتبه أكثرَ من سماعه، ولا يعلم، ولا يجمع العلم، ولا يُختلف إليه، حتى
يكونَ الإنفاقُ عليه من ماله، ألدَّ عنده من الإنفاقِ من مالِ عدوِّه، ومن لم
تكنْ نفقته التي تُخرجُ في الكتبِ ألدَّ عنده من إنفاقِ عُشاقِ القيانِ،
والمستهترين بالبنيانِ، لم يبلغ في العلم مبلغًا راضيًا.

وليس ينتفع بإنفاقه، حتى يُؤثرَ اتخاذَ الكتبِ إيثارَ الأعرابيِّ فرسه باللبنِ
على عياله، وحتى يُؤمّلَ في العلم ما يُؤمّلُ الأعرابيُّ في فرسه)^(٣).

(١) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة، بتصرف (ص: ١٦٤، ١٦٨، ١٦٩).

(٢) (مجموع الفتاوى) (١٠/٦٦٥).

(٣) (الحيوان) للجاحظ (١/٥٥).

وقال الخطيب: (اشترى رجل كتابًا، فقيل له: اشتريت ما ليس من علمك. فقال: اشتريت ما ليس من علمي؛ ليصير من علمي.

وقيل لآخر: ألا تشتري كتبًا تكون عندك؟!)

فقال: ما يمنعني من ذلك إلا أنني لا أعلم، فقيل: إنما يشتريها من لا يعلم، حتى يعلم.

وكان آخر يشتري كل كتاب يراه، فقيل له: إنك لتشتري ما لا تحتاج إليه.

فقال: رُبما احتجتُ إلى ما لا أحتاجُ إليه.

وكان بعض المُضَاة يشتري الكتب بالدين والقرض، فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أشتري شيئًا، بلغ بي هذا المبلغ؟ قيل: فإنك تُكثِر؛ فقال: على قدر الصنعة، تكون الآلهة^(١).

❖ حول اختيار الطبّعات:

قال الدكتور محمود الطناحي: (واجب على طالب العلم أن يعرف فرق ما بين الطبّعات؛ فإن كثيرًا من كتب التراث قد طبع مرتين أو أكثر، وتفاوتت هذه الطبّعات فيما بينها كمالًا ونقصًا، وصحةً وسقمًا، ولا بد أن يكون رجوع الطالب إلى الطبعة المستوفية لشرائط الصحة والقبول، وهذه الشرائط ظاهرة لائحة لمن يتأملها، وتتمثل في التقديم للكتاب، وبيان وزنه العلمي، وفهرسته فهرسةً فنيّةً تكشف عن كنوزه وخباياه، والعناية بضبطه

(١) ((تقييد العلم)) للخطيب البغدادي (ص: ١٣٧).

الصَّبْطُ الصَّحِيحُ، والتعليقِ عليه بما يُضِيئُهُ، وَيَرْبِطُهُ بما قبلَهُ وبما بعدهُ، في غيرِ سَرَفٍ ولا شَطَطٍ، ثمَّ في الإخراجِ الطَّبَاعِيِّ المِتمِّلِ في جودَةِ الوَرَقِ، ونِصَاعَةِ الحَرفِ الطَّبَاعِيِّ...^(١).

٤ - مصطلحات متعلّقةٌ بعناوينِ الكُتُبِ:

اهتمَّ كثيرٌ من العلماءِ بتدوينِ أسماءِ مشايخِهِم، أو مسموعاتِهِم، أو إجازاتِهِم، وقد أُلِّفَتْ في ذلكَ كُتُبٌ تحملُ أسماءً مختلفةً معَ تشابهِه مضمانيها: (المَشِيخَةُ) وهي الكُتُبُ الَّتِي يذُكَّرُ فيها المُوَلَّفُ الشيوخَ الَّذِينَ لَقِيَهُم، وأخذَ عنهم، أو أجازوهُ وإن لم يلقَهُم.

(المعاجمُ) الكُتُبُ الَّتِي يُترجمُ فيها المُوَلَّفُ شيوخَهُ مرتبِّينَ على حروفِ المعجمِ، وقد يذُكَّرُ ما رواهُ عنهم.

(الثَّبْتُ) بفتحِ الباءِ، هو الَّذِي يجمعُ فيه المُوَلَّفُ أسماءَ مَوْلَفاتِهِ، أو الَّذِي يجمعُ فيه مَروياتِهِ، ومشايخِهِ.

هذا منَ الناحيةِ النظريةِ، أمَّا عمليًّا فرمما جمعَ الكتابُ، أكثرَ من نوعٍ، وُسِّمَ بِأحدها فقط.

(الفهرسُ) هو الَّذِي يجمعُ فيه المُوَلَّفُ مَروياتِهِ المُجازَ فيها من الشيوخِ.

(البرنامِجُ) هو الَّذِي يذُكَّرُ فيه المُوَلَّفُ أسماءَ مَروياتِهِ، وأسانيدَ كُتُبِهِ المسموعةِ.

(١) ((الموجز في تراجم البلدان والمصنفات وتعريفات العلوم)) للطناحي (ص: ٢٢).

قال الكتّاني: (اعلم أنه بعد التتبع والتروّي، ظهر أنّ الأوائل كانوا يُطلِقون لفظة المشيخة على الجزء الذي يجمع فيه المحدث أسماء شيوخه، ومروياتهم عنهم، ثم صاروا يُطلِقون عليه بعد ذلك المعجم؛ لَمَّا صاروا يُفردون أسماء الشيوخ، ويرتبوهم على حروف المعجم، فكثُر استعمال وإطلاق المعاجم مع المشيخات. وأهل الأندلس يستعملون ويُطلِقون البرنامج، أمّا القرون الأخيرة، فأهل المشرق يقولون إلى الآن الثبّت، وأهل المغرب إلى الآن يُسمونه الفهرسة^(١)).

٥- القراءة:

(إنّ امتلاك القدرة على التركيز، واستحضار الفكر، امتلاك لزمّام المادة العلميّة، وهي السبيل الرئيس للوصول إلى الفهم، والإتقان، ويختلف مقدار التركيز المطلوب في القراءة حسب طبيعة الكتاب المقروء، ومستواه، وحسب مستوى القارئ الثّقافي أيضاً، وحسب الهدف من القراءة، فمقدار التركيز الواجب لقراءة كتابٍ علميٍّ متخصصٍ، يختلف عن التركيز المطلوب، لقراءة قصّة أدبيّة، أو كتابٍ في الثّقافة العامّة^(٢)).

❖ الوصول للسرعة المناسبة في القراءة:

(إنّ السرعة المناسبة في القراءة تعتمد على نوع المقروء، وعلى الغرض من القراءة، فقراءة الجرائد والمواد القصصيّة يمكن الإسراع فيها أكثر من الموضوعات العلميّة العميقة، كأصول الفقه مثلاً، ثمّ إنّ الغرض من القراءة

(١) ((فهرس الفهارس والأثبات)) لعبد الحي الكتّاني (٦٧/١).

(٢) ((من آفات القراءة)) لأحمد الصويان.

يؤثّر في السُرعة، فإذا كان المقصود من القراءة الفهم، تطلّب الأمر نوعاً من التأني، وإذا كان المقصود مراجعة الحفظ أو قراءة الحدرد، فإنّ السُرعة تزيد (القراءة السريعة قد تصل إلى ٦٠٠ كلمة في الدقيقة)، وإذا كان المقصود التصحّح؛ لتكوين فكرة عامّة عن كتاب ليس في المقدور قراءته الآن؛ فإنّ القارئ سيقرّأ أوّل جملة من كلّ مقطع أو شيئاً من وسط الصفحة، وهذا حال من يبحث عن موضع معلومة سبق قراءتها، أو يلجأ إلى القراءة الخاطفة في كتاب؛ ليقرّر ما إذا كان يريد شراءه أم لا، ورمّا يحتاج الأمر إلى شيء أسرع من ذلك، كمن أراد معرفة الفكرة العامّة للكتاب، فهو يقرأ عناوين الفصول والفهرس، وينتقي صفحات عشوائياً للنظر فيها، ويمرّر أخرى بتقليب سريع.

وإذا ما أردت معرفة هل سرعتك في القراءة مناسبة أم لا، فاقراً سرّاً لمدة خمس دقائق، ثمّ قم بعدّ الكلمات وقسمه المجموع على خمسة، فإن كان الناتج (١٥٠) كلمة فأقلّ، فأنت بطيء القراءة، وعليك أن تسعى لزيادة سرعة قراءتك، وفيما يلي اقتراحات لبعض الخبراء:

- أن تقرأ خمس دقائق مثلاً كل يوم، ولمدة شهر بأسرع ما تطيق، تاركاً الانشغال بالمعنى مؤقتاً.
- توسيع نطاق النظر أثناء القراءة، بإقلال زمن الوقوف على رسم الكلمة الواحدة.
- أن تكون القراءة صامتة دون تحريك للشفتين أو رفع الصوت، مع

عدم الرجوع للكلمة المُبْهَمَة أو تَكَرُّرها، فمعناها سَيَبِينٌ لَكَ غَالِبًا
مَنْ السِّيَاقِ وَالسَّبَاقِ.

وفيما يلي بعضُ الأخبارِ المحمَّسةِ على القِراءةِ:

سمعَ الخطيبُ البغداديُّ على إسماعيلَ بنِ أحمدَ الحيريِّ بمكةَ صحيحَ
البحاريِّ في ثلاثةِ مجالسٍ: اثنانِ منهما في ليلتين، كانَ يبتدئُ بالقِراءةِ وقتَ
المغربِ، ويختمُ عندَ صلاةِ الفجرِ، والثالثُ من ضُحوةِ النَّهارِ حتَّى طلوعِ
الفجرِ. قالَ الذهبيُّ: وهذا شيءٌ لا أعلمُ أحدًا في زماننا يستطيعُهُ.

وقرأ ابنُ حجرٍ في إقامتهِ بدمشقٍ - وكانت شهرينِ وثُلثَ الشَّهرِ -
قريبًا من مئةِ مجلِّدٍ^(١).

❖ أمورٌ تساعدُ على القِراءةِ:

(ذكر العلماءُ والتربويُّونَ أسبابًا كثيرةً تعينُ القارئَ على التَّركيزِ؛ مثل:

اختيارِ الأوقاتِ المناسبةِ، والأماكنِ الملائمةِ الخاليةِ من الصَّوارفِ، وأن يكونَ
خالِي الذَّهنِ، ولديه الاستعدادُ العقليُّ والنَّفسيُّ، الَّذي يُعينُهُ على استجماعِ
قُدْرَاتِهِ الفِكرِيَّةِ.. ونحو ذلك ممَّا يطولُ وصفُهُ، ولكنَّ يجمعُها وصفٌ واحدٌ
وهو: أن يكونَ جادًّا، حريصًا، ذا همَّةٍ صادقةٍ.

فَمَنْ امتلَكَ هذا الوصفَ حَرَصَ على تَدْلِيلِ كَافَّةِ العُقباتِ الَّتِي قَدْ
تَعَرَّضُ لَهَا^(٢).

(١) ((كيف تقرأ كتابًا)) للمنجد (ص: ٥٣-٥٥).

(٢) ((من آفات القِراءة)) لأحمد الصويان.

❖ آفات القراءة:

(الآفة الأولى: قلَّة الصَّبْرِ على القراءة والمطالعة.

الآفة الثانية: ضعف التركيز.

الآفة الثالثة: ضعف المنهجية في القراءة^(١).

(وكثيرٌ من القراء، لا يحرصُ أثناء القراءة على بناء فكره، وإحياء قدراته العقلية، ولا يستحثُّها للنظر والتأمل، وإنما يقع أسيراً ينتظر التلقين من المؤلف، ويقف دائماً موقف المتلقّي، ومثلُ هذا وإن حصل كما من المعلومات؛ فإنه ليس قارئاً جيّداً؛ لأنّه لا يملك البصيرة ولا القدرة على التمييز والموازنة بين اجتهادات العلماء والمفكرين، فالتفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكاً لنا)^(٢).

وقد حكى ابنُ بدران عن شيخه الشيخ محمد بن عثمان الحنبلي المشهور بخطيب دوما قال: (وكان رحمه الله يقول لنا: لا ينبغي لمن يقرأ كتاباً أن يتصور أنه يُريد قراءته مرّة ثانية؛ لأنّ هذا التصور يمنعه عن فهم جميع الكتاب، بل يتصور أنه لا يعود إليه مرّة ثانية أبداً)^(٣).

٦- مطالعة الكتب:

قال القاضي عياض: (ذُكر أنّ صديقاً لأبي عمر الإشيليّ، شيخ فقهائ

(١) ((من آفات القراءة)) لأحمد الصويان.

(٢) ((المصدر السابق)).

(٣) ((المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل)) (١/٢٦٦).

الأندلس في وقته، قصده في عيد زائرًا له، فأصابه داخل داره، ودرته مفتوح. فجلس منتظره وأبطأ عليه، فأوصى إليه فخرج، وهو ينظر في كتاب، فلم يشعر بصديقه حتى عثر فيه؛ لاشتغال باله بالكتاب، فتنبه حينئذ له، وسلم عليه، واعتذر إليه من احتباسه بشغله، بمسألة عويصة لم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه، فقال له الرجل: في أيام عيد، ووقت راحة مسنونة؟! فقال: إذا علمت هذه النفس انصبت إلى هذه المعرفة، والله ما لي راحة ولا لذة في غير النظر، والقراءة^(١).

قال السخاوي في ترجمة أحمد بن سليمان البلقاسي: (كان... محبًا للعلم، والمذاكرة، والمباحثة، غير مُنفك عن التحصيل، بحيث إنه كان يطالع في مشيه، ويُقريء القراءات في حال أكله؛ خوفًا من ضياع وقته في غيره، أعجوبة في هذا المعنى، لا أعلم في وقته من يُوازيه فيه)^(٢).

وقال الفيروزبادي: (اشترت بخمسين ألف مثقال ذهبًا، كتبًا)^(٣).

قال السخاوي عنه: (وكان لا يُسافر إلا وصحبته منها عدّة أحمال، ويُخرج أكثرها في كل منزلة، فينظر فيها، ثم يعيدها إذا ارتحل)^(٤).

قال الأدفي في ترجمة ابن دقيق العيد: (وكان له قدرة على المطالعة، رأيت خزانة المدرسة النجيبية فيها جملة كتب، من جملتها: عيون الأدلة لابن

(١) ((ترتيب المدارك)) للقاضي عياض (١٢٤/٧، ١٢٥).

(٢) ((الضوء اللامع)) للسخاوي (٣١١/١).

(٣) ((المصدر السابق)) (٨١/١٠).

(٤) ((الضوء اللامع)) للسخاوي (٨١/١٠).

القصار، في نحو من ثلاثين مجلدةً وعليها علاماتٌ له، وكذلك رأيتُ كتبَ المدرسة السابقيّة، رأيتُ السننَ الكبيرَ للبيهقيّ فيها، في كلّ مجلدةٍ علامةٌ، وفيها تاريخُ الخطيب، ومعجمُ الطبرانيّ الكبير، والبسيطُ للواحديّ وغيرها، وأخبرني شيخنا الدندريّ: أنّه لَمَّا ظهرَ الشرحُ الكبيرُ للرافعيّ اشتراهُ بألفِ درهم، وصارَ يُصَلِّي الفرائضَ فقط، واشتغلَ بالمطالعةِ إلى أنْ أنماهَ مطالعةً، ويُقالُ: إنّهُ طالعَ كتبَ الفاضليّةِ عن آخرها^(١).

قالَ أبو عمرَ يوسفُ بنُ يحيى المغامبيّ: (طرقتُ عبدَالمملكِ بنَ حبيبِ الأندلسيّ القرطبيّ يوماً بعَلَسٍ؛ حرصاً على الاقتباسِ منه، واستأذنتُ عليه، فأذنَ لي ودخلتُ، فإذا به جالسٌ في مجلسه، عاكفٌ على الكُتُبِ، قد أحاطتْ به ينظرُ فيها، والشَّمعَةُ بينَ يديه تَقْدُ، وطويلةٌ عليه - أي: على رأسه قنسوهُ طويلةٌ - فسَلَّمْتُ فردَّ عليّ وقالَ لي: يا يوسفُ، أوَقَدِ انسلخَ الليل؟ قلتُ: نعم، وقد صلّينا، فقامَ إلى صلاةِ الصُّبحِ فصَلَّاهَا، ثمَّ رجعَ إلى مَقْعَدِهِ، وقالَ: يا يوسفُ، ما صلّيتُ هذه الصَّلَاةَ إلَّا بوضوءِ العِشاءِ الآخرةِ!)^(٢).

قالَ ابنُ حُميدٍ في ترجمةِ عبدِالوَهَّابِ بنِ مُحَمَّدِ التميميّ الأحسائيّ:

(أكبَّ على تحصيلِ العلم، وإدمانِ المطالعةِ، والمراجعةِ، والمذاكرةِ، والمباحثةِ، ليلاً ونهاراً، لم تنصرفْ همَّتهُ إلى غيره أصلاً، حتَّى إنّهُ لَمَّا تزوجَ بأمرٍ والده وإلزامه، أخذَ ليلةَ الدُّخولِ معه المحفوظةَ، فلمَّا انصرفَ عنه الناسُ

(١) ((الطالع السعيد)) للأدفوي (ص: ٥٨٠).

(٢) ((ترتيب المدارك)) للقاضي عياض (٤/١٣٨).

نَزَلَ السَّرَاجَ، وَقَعَدَ يُطَالِعُ الدَّرُوسَ الَّتِي يَرِيدُ أَنْ يَقْرَأَهَا فِي غَدٍ، وَيُقَدِّرُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ بَعْدَ إِتْمَامِ المَطَالَعَةِ يُبَاشِرُ أَهْلَهُ، فَاسْتَعْرَقَ فِي المَطَالَعَةِ إِلَى أَنْ أَذَّنَ الصُّبْحَ، فَتَوَضَّأَ وَخَرَجَ لِلصَّلَاةِ، وَحَضَرَ دُرُوسَ وَالِدِهِ مِنْ أَوْلَاهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ وَالِدُهُ بِذَلِكَ؛ لِكُونِهِ لَا يُبْصِرُ، وَلَمَّا فَرَّغَ مِنَ الدَّرُوسِ، بَارَكَ لَهُ الحَاضِرُونَ، وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، فَعَلَ كَفَعَلِهِ بِالْأَمْسِ، وَلَمْ يَقْرَبْ أَهْلَهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِلتَّرْكِ، لَكِنْ لِاسْتِغَالِهِ بِالمَطَالَعَةِ، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: أَطَالِعُ الدَّرْسَ، ثُمَّ أَتَفَتُّ إِلَى الأَهْلِ، فَيَسْتَعْرِقُ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ، فَأَخْبَرَتِ المَرْأَةُ وَلِيَّهَا بِذَلِكَ، فَذَهَبَ وَأَخْبَرَ وَالِدَهُ بِالقِصَّةِ، فَدَعَا وَالِدَهُ وَعَاتَبَهُ، وَأَخَذَ مِنْهُ المَحْفَظَةَ، وَأَكَّدَ عَلَيْهِ بِالإِقْبَالِ عَلَيْهَا^(١).

قَالَ ابْنُ الأَبْنَوْسِيِّ: (كَانَ الحَافِظُ الخَطِيبُ يَمْشِي وَفِي يَدِهِ جِزْءٌ يُطَالِعُهُ)^(٢).

وَفِي تَرْجَمَةِ أَبِي دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيِّ صَاحِبِ (السُّنَنِ): قَالَ ابْنُ دَاسَةَ: (كَانَ لِأَبِي دَاوُدَ كُتْمٌ وَاسِعٌ، وَكُتْمٌ ضَيِّقٌ، فَفَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: الوَاسِعُ لِلْكِتَابِ، وَالأَخْرُ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ)^(٣).

وَذَكَرَ العَسْكَرِيُّ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الحَيَّاطَ -العَلَامَةَ النَحْوِيَّ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ البَغْدَادِيَّ (ت ٣٢٠هـ)- كَانَ يَدْرُسُ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ، حَتَّى فِي الطَّرِيقِ، وَكَانَ رُبَّمَا سَقَطَ فِي جَرْفٍ، أَوْ خَبَطَتْهُ دَابَّةٌ^(٤).

(١) ((السحب الوابلية)) لابن حميد، بتصرف (٢/٦٨٢).

(٢) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٨/٢٨١).

(٣) ((المصدر السابق)) (١٣/٢١٧).

(٤) ((الحث على طلب العلم)) للعسكري (ص: ٧٧).

٧- إعارَةُ الكُتُبِ:

عن حُسين بن أبي السَّرِيِّ قال: سمعتُ وكيعًا يقول: أوَّلُ بركةِ الحديثِ إعارَةُ الكُتُبِ^(١).

وعن أبي وهبٍ محمَّد بن مُزاحِمٍ قال: أوَّلُ بركةِ العِلْمِ إعارَةُ الكُتُبِ^(٢).
الكُتُبِ^(٢).

(وقيل: أتى أبا العتاهية بعضُ إخوانه فقال له: أعزني دفتَرَ كذا وكذا، فقال: إنِّي أكرهُ ذلك، فقال له: أما علمتَ أنَّ المكارمَ موصولةٌ بالمكاره؟ فدفعَ إليه الدفتَرَ.

وأنشد أبو الكرم خميسُ بنُ عليٍّ بن أحمدَ الحوزيُّ لنفسيه في إعارَةِ الأجزاء:

كُتُبِي لِأَهْلِ العِلْمِ مَبْدُولَةٌ أَيَدِيهِمْ مِثْلُ يَدِي فِيهَا
مَتَى أَرَادُوهَا بِلا مَنَّةٍ عَارِيَةً فَلَيْسَ تَعِيرُوهَا
حَاشَايَ أَنْ أَكْتُمَهَا عَنْهُمْ بُلْغًا كَمَا غَيْرِي يُخْفِيهَا
أَعَارَنا أَشْيَاخُنَا كُتُبَهُمْ وَسُنَّةَ الأَشْيَاخِ مُضِيهَا^(٣)

٨- التَّادِبُ مَعَ الكُتُبِ:

قال ابنُ جماعةٍ عن الكُتُبِ:

(١) ((أدب الإملاء والاستملاء)) للسمعاني (١٧٤).

(٢) ((المصدر السابق)) (١٧٥).

(٣) ((المصدر السابق)).

(إذا وضعها على خشبٍ ونحوه، جعلَ فوقها، أو تحتها، ما يمنعُ تأكل جلودها به، ولا يجعلُ الكتابَ خزانةً للكراريس أو غيرها، ولا مخدَّةً، ولا مروحةً، ولا مسندًا، ولا مُتَكِّئًا، ولا مقتلةً للبقِّ وغيره، ولا يطوي حاشية الورقة أو زاويتها، ولا يُعلمُ بعودٍ أو شيءٍ جافٍّ، بل بورقةٍ أو نحوها، وإذا ظفرَ فلا يكبسُ ظُفْرَهُ قوياً).

ويُرَاعِي الأدبَ في وضعِ الكُتُبِ، باعتبارِ علومِها، وشرفِها، وشرفِ مُصنِّفيها، وجلالَتِهم، فيضعُ الأشرفَ أعلى الكلِّ، ثمَّ يراعي التَّدرِجَ، فإنَّ كانَ فيها المصحفُ الكَرِيمُ، جعلَهُ أعلى الكلِّ، وهكذا^(١).

(رأى بعضُ الحكماءِ رجلاً يبتذلُ كتابًا، فقالَ له: بَيَّنْتَ عن نقصِكَ، وبرهنْتَ عن جهلكَ؛ فما هانَ أحدُ كتابِ علمٍ؛ إلَّا لجهلهِ بما فيه؛ وسوءِ معرفتهِ بما يحويه).

ورأى آخرُ رجلاً قد جالسَ على كتابٍ، فقالَ: سبحانَ اللهِ، يصونُ ثيابهُ ولا يصونُ كتابه، لَصَوْنُ الكتابِ أَوْلَى من صَوْنِ الثِّيَابِ^(٢).

٩- استعارةُ الكُتُبِ:

قالَ الشيخُ الأديبُ عليُّ الطنطاويُّ: (ومثلُ هؤلاءِ المقترضينَ الأفاضلِ، مستعبرو الكُتُبِ، أولئك الذين تركوا في قلبي عُصَصًا، حلفتُ بعدها بموثقاتِ الأيمانِ، أي لا أُعيرُ أحدًا كتابًا، ولم أنجُ مع ذلكَ منهم، ولم يُردِّ لي إلى الآنَ كتابٌ (كشفِ الظُّنونِ) الذي نسيْتُ من استعارتهِ مِنِّي منذُ إحدى عَشْرَةَ

(١) (تذكرة السامع)) لابن جماعة (ص: ١٧٠، ١٧١)، بتصرف.

(٢) (تقييد العلم)) للخطيب البغدادي (ص: ٣٥٣).

سنة، ولهؤلاء المستعيرين نوادر، شهدتُ منها العجب، منها أن أستاذًا محترمًا في قومه، جاءني مرّةً يلتمسُ إعارتهُ جزءًا من (تفسير الخازن)، من خزانة كُتبي؛ ليراجع فيه مسألةً، ويرُدُّه إليَّ عاجلاً، ففعلتُ، وانتظرتُ أربعَ سنواتٍ ثمَّ دكرتُه به، فغضبَ وقال: ليش العجلةُ يا أستاذ؟ لم أراجع المسألةَ بعدُ!

والذي يذكرُ منهم صاحبَ الكتابِ، ويتنازلُ، فيرُدُّه إليه، يرُدُّه مخلوعَ الجلدِ، ممزَّقِ الأوصالِ!

وأنكى منه المستعيرُ، المحقِّقُ، المدقِّقُ، الذي يرى في الكتابِ مؤظناً يحتاجُ إلى تعليقٍ، فيكتبُ التعليقةَ التي يفتحُ الله بها عليه، على هامشِ كتابك، بالخيرِ الصَّيِّبِ الذي لا يُمحي، ولا يُكسِطُ، ويُذيلُها باسمِهِ الكريمِ!!

وشرٌّ من هؤلاءِ جميعاً، التَّقيُّ الذي يتظرفُ ويتخففُ، فيرى أن من الظُّرفِ سرقةَ الكتبِ، فإذا زاركَ وتركتُه في المكتبةِ، وخرجتَ؛ لتأتيه بالقهوةِ والشاي، أخذَ كتابًا فُدسُّه تحتَ إبطه، أو وضعه في جيبه، ثمَّ ذهبَ به، وأنتَ لا تدري^(١).

واشتهرَ قولُ بعضهم:

ألا يا مُستعيرَ الكُتبِ دغني فإنَّ إعارتي للكُتبِ عارُ
فمحبوبي من الدنيا كتابٌ فهل أبصرتَ محبوبًا يُعارُ؟

قال المُبرِّدُ: (أتى الأصمعيَّ رجلٌ، فسألهُ أن يكتبَ له شيئًا من العلمِ، فكتبه له، فلمَّا كانَ بعدَ أيامٍ، عادَ إليه، فقال: يا أبا سعيدٍ، إنَّ ذلكَ القرطاسَ

(١) ((في سبيل الإصلاح)) للطنطاوي (ص: ٩٦، ٩٧).

الَّذِي كَتَبْتَهُ لِي سَقَطَ مِنِّي، فَأَكَلْتُهُ الشَّاهُ، فَأُحِبُّ أَنْ تَكْتُبَ لِي غَيْرُهُ ثَانِيًا.

فَكْتُبَ لَه:

قَلْ لِبُعَاةِ الْآدَابِ مَا وَصَلْتُ مِنْهَا إِلَيْكُمْ فَلَا تُضْيَعُوهَا
ضَمُّنُوا عِلْمَهَا الدَّفَاتِرَ وَالْجُبَرَ بِحَسَنِ الْكِتَابِ أَوْ عَوْهَا
إِنْ اشْتَرَيْتُمْوَا يَوْمًا لِأَهْلِكُمْ شَاهًا لَبُونًا فَلَا تُجِيعُوهَا
فَإِنْ عَجَزْتُمْ وَلَمْ يَكُنْ عَلَفٌ يُشْبِعُهَا عِنْدَكُمْ فَبِئْسَ عَوْهَا^(١)

وجاء في كتاب "الثمار اليانعة" للشيخ عبد الله بن جابر الله قوله: (قرأت في إحدى المجلات عن أشخاص كونا لهم مكتبات من كتب الناس، فكانوا يستعيرونها ثم لا يرجعوها، وانتشرت سرقة الكتب هذه تحت ستار الاستعارة، حتى اشتهر بها أناس من المعروفين بالمكانة الاجتماعية! وإن كان هذا طريقا غير شرعي، ولوصيئة، فقد ذمه السلف ووضعوا آدابا لاستعارة الكتب، من خالفها يمتنعون عن إعارته مرة أخرى؛ فمن آداب الاستعارة: توقيف الكتاب، والاهتمام بنظافته، فكثير ممن يستعرون الكتب يرجعوها إلى أصحابها أبعدا ما تكون عن النظافة، وحدث هذا مع أبي حامد أحمد بن طاهر الإسفرائيني الفقيه، حين استعار منه رجل كتابا فراه يوما وقد أخذ عليه عبا، ثم إن الرجل سأله بعد ذلك أن يعيره كتابا، فقال: تأتيني إلى المنزل فأتاه، فأخرج الكتاب إليه في طبق وناوله إياه، فاستنكر الرجل ذلك، وقال: ما هذا؟! فقال أبو حامد: هذا الكتاب الذي طلبته، وهذا طبق توضع ما تأكله، فعلم بذلك

(١) ((تقييد العلم)) للخطيب البغدادي (ص: ١٤٧).

ما كان من ذنبه.

ومن آداب الاستعارة: ألا ترجع الكتاب مُتغيِّراً متكسِّراً مهلهلاً؛ فإن فعلت ذلك عُوقبت بمنعك من الاستعارة، كما فعل بعض أهل العلم حين استعار من رجل كتاباً ثم رده إليه بعد حين متكسِّراً متغيِّراً، عليه آثار البزور وغيره، فسأله أن يُعيِّره غيره، فقال له: ما أحسنت ضيافة الأول فنُضيفك الثاني!

أمَّا فقدُ الكتاب المستعار؛ فهذه كبيرةٌ من كبائر الاستعارة، لا يحقُّ لمن فعلها أن يُعارَ بعد ذلك^(١).

ولمعرفة حُكم إعارَةِ الكُتُب، وبذلها لمن يحتاج إليها، والشروطِ المعتبرة للإعارة، وآدابِ الإعارةِ والاستعارة، عليك بكتاب (إعارةِ الكتبِ أحكامها وآدابها في الفقه الإسلاميِّ)، لصالح محمَّد الرَشيد، فقد ألقى الضوء على هذا الموضوع، وكشف كثيراً من أحكامه، وآدابه، والكتاب مفيدٌ في هذا الباب.



(١) ((الثمار اليانعة)) للشيخ عبدالله بن جار الله (ص: ٣٧٢-٣٧٣).

سادساً: إضاءات على ورثة الأنبياء

١ - حقيقة العالم:

من الأمور المستنكرة في هذا الزمان، المغالاة في إطلاق الألقاب العلمية، فأصبح إطلاق لقب عالم أو علامة أو محدث أو فقيه على طلبة العلم من قبل تلامذتهم، أمراً شائعاً، وما ذلك إلا لفسوؤ الجهل بحقيقة العالم وشروطه وصفاته، والتي قد لا تتوفر في كثير ممن تُطلق عليهم هذه الألقاب، وقد سئل عبدالله بن المبارك هل للعلماء علامة يُعرفون بها؟ قال: علامة العالم من عمل بعلمه، واستقل كثير العلم والعمل من نفسه، ورغب في علم غيره، وقيل الحق من كل من أتاه به، وأخذ العلم حيث وجدته، فهذه علامة العالم وصفته. قال المروزي: فذكرت ذلك لأبي عبدالله. فقال: هكذا هو^(١).

ورحم الله الحسن البصري، عندما سأله مطرُ الوراق عن مسألة فأجابته، فقال له: يا أبا سعيد يأتني عليك الفقهاء، يخالفونك. فقال الحسن: (تَكَلِّتَكَ أُمُّكَ، انظُر، وهل رأيت فقيهاً قط؟ وهل تدري من الفقيه؟ الفقيه: الورع، الزاهد، المقيم على سنة محمد صلى الله عليه وسلم، الذي لا يسخر بمن أسفل منه، ولا يهزأ بمن فوقه، ولا يأخذ على علم علمه الله إياه حطاماً)^(٢).

وعن علي رضي الله عنه قال: (ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه؟ الذي لا يُقنطُ الناس من رحمة الله، ولا يُرخصُ للمرء في معاصي الله، ولا يدع القرآن

(١) ((إبطال الحيل)) لابن بطة العكبري (ص: ٢١).

(٢) (طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (٢/٤٨١).

رغبةً إلى غيره، إنَّه لا خيرَ في عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا خيرَ في علمٍ لا فقهَ فيه، ولا خيرَ في قراءةٍ لا تدبَّرَ معها^(١).

٢- من صفات العلماء:

أ- خشيةُ الله:

قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: (ليسَ العلمُ للمرءِ بكثرةِ الروايةِ، ولكنَّ العلمَ الخشيةُ)^(٢).

عن مالكِ بنِ مغولٍ قال: (استفتى رجلٌ الشَّعبيَّ فقال: أيُّها العالمُ، أفتني. فقال: إنما العالمُ من يخافُ الله)^(٣).

وقال الإمامُ أحمدُ: (أصلُ العلمِ، خشيةُ اللهِ تعالى)^(٤).

وعن عبدِ اللهِ بنِ أحمدَ قال: قلتُ لأبي: (هل كانَ معَ معرُوفٍ شيءٌ منَ العلمِ؟ قال لي: يا بُنيَّ، كانَ معَهُ رأسُ العلمِ؛ خشيةُ اللهِ تعالى)^(٥).

قال الحسنُ: (كانَ الرجلُ يطلبُ العلمَ، فلا يلبثُ أن يُرى ذلكَ في تحشُّعِهِ وهُدْيِهِ وَلِسَانِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدِهِ)^(٦).

قال ابنُ الجوزيِّ: (رأيتُ أكثرَ العلماءِ مُشتغِلينَ بصورةِ العلمِ، دونَ فهِمِ

(١) ((كتاب العلم)) لأبي خيثمة (ص: ٣٣).

(٢) ((إبطال الخيل)) لابن بطة (ص: ٢٠).

(٣) ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

(٤) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص: ٩).

(٥) ((طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١/٣٨٢).

(٦) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (١/٢١٦).

حَقِيقَتِهِ وَمَقْصُودِهِ.

فالقارئ مشغولٌ بالروايات، عاكفٌ على الشواذِّ، يرى أنَّ المقصودَ نفسُ التلاوة، ولا يتلمَّحُ عظمةَ المتكلمِّ؛ ولا زجرَ القرآنِ ووعدَه..

والمحدِّثُ يجمَعُ الطُّرُقَ، ويحفظُ الأسانيدَ، ولا يتأملُ مقصودَ المنقولِ، ويرى أنَّه قد حفظَ على الناسِ الأحاديثَ، فهو يرجو بذلك السَّلامَةَ...

والفقيهُ قد وقَّعَ له أنَّه بما قد عرَفَ من الجدالِ الَّذي يُقوي به خصامه، أو المسائلِ التي يُفتي بها النَّاسَ ما يرفعُ قدره، ويمحو ذنبه...

وينضافُ إليه مع الجهلِ بهما، حُبُّ الرِّياسَةِ، وإيثارُ العَلَبَةِ في الجدالِ، فتزيدُ قسوةَ قلبه، وعلى هذا أكثرُ النَّاسِ، صوَرُ العِلْمِ عندهم صناعةٌ، فهي تُكسبُهم الكِبَرَ والحِماقةَ (...).

ثم قال: (.. وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلمُ صورَ الألفاظِ، إنّما المقصودُ فهمُ المرادِ منه، وذلك يُورثُ الخشيةَ والخوفَ، ويرى المنَّةَ للمُنعمِ بالعلمِ، وقوَّةَ الحجَّةِ له على المتعلِّمِ...)^(١).

ب- شِدَّةُ الانشغالِ بالعلمِ:

قال ابنُ مُحَرِّمِ الفقيهِ، أحدُ تلامذةِ مُحَمَّدِ بنِ جريرٍ: (لما تزوجتُ، وحملتُ إلى المرأة، جلستُ في بعضِ الأيامِ، أكتُبُ شيئاً على العادة، والمخبرَةُ بينَ يديّ، فجاءتْ أمُّها، فأخذتِ المخبرَةَ فضربتْ بها الأرضَ، فكسرتُها، فقلتُ لها في ذلك، فقالت: هذه شرٌّ على ابنتي من ثلاثمئةِ ضرةٍ)^(٢).

(١) ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦ - ٤٣٨)، بتصرف.

(٢) ((تاريخ بغداد))، للخطيب البغدادي (١/٣٢١).

وكان ابن شهاب الزهري إذا جلس في بيته، وضع كُتبه حوله، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوماً: (والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر)^(١).

وعن نعيم بن حماد قال: (كان ابن المبارك يُكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؟!)^(٢).

وقال يحيى بن محمد بن يحيى الذهلي: (دخلت على أبي في الصيف الصائف، وقت القائلة، وهو في بيت كُتبه، وبين يديه السراج، وهو يُصنّف، فقلت: يا أبة، هذا وقت الصلاة، ودخان هذا السراج بالنهار، فلو نفست عن نفسك! قال: يا بُنيّ تقول لي هذا، وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين؟!)^(٣).

وقال أبو علي الأوقفي: سمعت السلفي يقول: (لي ستون سنة ما رأيت منارة الإسكندرية - وكانت من أعاجيب الدنيا السبعة - إلا من هذه الطاقة - يعني: طاقة حُجرتِه في المدرسة)^(٤).

ج- عمق الفهم:

قال عبدالرحمن بن مهدي: (معرفة الحديث، إلهام). وقال: (إنكارنا

(١) ((وفيات الأعيان)) لابن خلكان (٤/١٧٧ - ١٧٨).

(٢) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٨/٣٨٢).

(٣) ((تاريخ بغداد)) للخطيب البغدادي (٣/٤١٩).

(٤) ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٤٠/٢٠١).

الحديثَ عندَ الجُهَّالِ، كَهَانَةٌ^(١).

وَلَمَّا أَنْكَرَ ابْنُ مَهْدِيٍّ حَدِيثًا رَوَاهُ رَجُلٌ، غَضِبَ لِلرَّجُلِ جَمَاعَةٌ، وَقَالُوا لَهُ: مَنْ أَيْنَ قُلْتَ هَذَا فِي صَاحِبِنَا؟ قَالَ لَهُمْ: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَتَى بِدِينَارٍ إِلَى صَيْرِيٍّ، فَقَالَ: انْتَقِدْ لِي هَذَا. فَقَالَ الصَّيْرِيُّ: هُوَ بَهْرَجٌ. يَقُولُ لَهُ: مَنْ أَيْنَ قُلْتَ لِي: إِنَّهُ بَهْرَجٌ؟) ثُمَّ قَالَ: الزَّمَّ عَمَلِي هَذَا عِشْرِينَ سَنَةً، حَتَّى تَعْلَمَ مِنْهُ مَا أَعْلَمُ^(٢).

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحِ الْمَصْرِيِّ: (مَعْرِفَةُ الْحَدِيثِ بِمَنْزِلَةِ مَعْرِفَةِ الذَّهَبِ، إِذَا يُبْصِرُهُ أَهْلُهُ)^(٣).

د- الانضباطُ في التعاملِ مع المخالفِ:

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي "مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى": (هَذَا وَأَنَا فِي سَعَةِ صَدْرٍ لِمَنْ يُخَالِفُنِي؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ تَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ فِيَّ، بِتَكْفِيرٍ، أَوْ تَفْسِيقٍ، أَوْ افْتِرَاءٍ، أَوْ عَصِيَّةٍ جَاهِلِيَّةٍ، فَأَنَا لَا أَتَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ فِيهِ؛ بَلْ أَضْبِطُ مَا أَقُولُهُ، وَأَفْعَلُهُ، وَأَزِنُهُ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ، وَأَجْعَلُهُ مُؤْتَمًّا بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَجَعَلَهُ هَدًى لِلنَّاسِ، حَاكِمًا فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)^(٤).

وَقَالَ أَيْضًا: (وَإِذَا اجْتَمَعَ فِي الرَّجُلِ الْوَاحِدِ خَيْرٌ وَشَرٌّ، وَفَجُورٌ وَطَاعَةٌ وَمَعْصِيَةٌ، وَسَنَةٌ وَبِدْعَةٌ، اسْتَحَقَّ مِنَ الْمَوْلَاةِ وَالْثَوَابِ بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ،

(١) ((علل الحديث)) لابن أبي حاتم (١/١٢٤).

(٢) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (٢/٣٨٣).

(٣) ((المصدر السابق)).

(٤) ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣/٢٤٥).

وَاسْتَحَقَّ مِنَ الْمَعَادَةِ وَالْعِقَابِ بِحَسَبِ مَا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ، فَيَجْتَمِعُ فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ مَوْجِبَاتُ الْإِكْرَامِ، وَالْإِهَانَةِ، فَيَجْتَمِعُ لَهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا^(١).

٣- أحوال العلماء الربانيين:

عن ابن المسيب قال: (ما لقيتُ الناسَ مُنْصَرِفِينَ من صلاةٍ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً)^(٢).

وَكَانَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَزَّأَ اللَّيْلَةَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: الثَّلَاثَ الْأَوَّلَ: يَكْتُبُ، وَالثَّانِي: يُصَلِّي فِيهِ، وَالثَّلَاثَ: يَنَامُ^(٣).

وَقَالَ الرَّبِيعُ: (نَمْتُ فِي مَنْزِلِ الشَّافِعِيِّ لَيْلِي، فَلَمْ يَكُنْ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَيْسَرَهُ)^(٤).

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبْعِيُّ: (يَا مَعْشَرَ الشُّبَابِ، اغْتَنِمُوا - يَعْنِي قُوتَكُمْ وَشُبَابَكُمْ - قَلَمًا مَرَّتْ بِى لَيْلَةً، إِلَّا وَقَرَأُ فِيهَا أَلْفَ آيَةٍ، وَإِنِّي لِأَقْرَأُ الْبَقْرَةَ فِي رَكْعَةٍ، وَإِنِّي لِأَصُومُ أَشْهَرَ الْحَرَمِ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَالْإِثْنِينَ وَالْخَمِيسَ، ثُمَّ تَلَا: { وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ } [سورة الضحى: ١١])^(٥).

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ: (لَوْ قِيلَ لِحَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ: إِنَّكَ تَمُوتُ غَدًا، مَا قَدَرَ أَنْ يَزِيدَ فِي الْعَمَلِ شَيْئًا)^(٦).

(١) ((مجموع الفتاوى)) (٢٠٩/٢٨).

(٢) ((الطبقات الكبرى)) لابن سعد (١٣١/٥).

(٣) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (١٣٥/٩).

(٤) ((المجموع)) للنووي (١٢/١).

(٥) ((المستدرک)) للحاكم (٥٧٤/٢).

(٦) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٢٥٠/٦).

قال الشيخ عبدالكريم الحُضَيْر:

(كَانَ الشَّيْخُ عَبْدِالْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى مُضْرِبَ الْمَثَلِ فِي التَّضْحِيَةِ، حَيْثُ بَدَلَ جَمِيعَ وَقْتِهِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ، وَحَدَّثَنَا زَوْجَتُهُ أَنَّهَا فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي جَاءَ مِنَ الْمُسْتَشْفَى، وَلاَحَظْتُ عَلَيْهِ آثَارَ التَّعَبِ، فَضَبَطَتِ السَّاعَةَ بَعْدَ عَادَتِهِ فِي الْقِيَامِ بِسَاعَةٍ؛ رَافَةً بِهِ، فَانْتَبَهَ عَلَى الْعَادَةِ، وَسَأَلَهَا لِمَ لَمْ يَشْتَغَلْ مُنْبَهُ السَّاعَةِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، فَلَامَهَا عَلَى ذَلِكَ، وَأَخْبَرْتُهُ أَنَّهَا فَعَلَتْ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ رَاحَتِهِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: الرَّاحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَكَانَ مَعْدَلُ نَوْمِهِ لَا يَزِيدُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَلَى أَرْبَعِ سَاعَاتٍ)^(١).

وقال أيضًا: (لا يَسْتَحِقُّ الوصفَ بالعالمِ إِلَّا مَنْ عَمَلَ، { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ } [الزمر: ٩]، فدلَّ على أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ الْمُسْتَحْقِينَ لِهَذَا الْوَصْفِ هُمُ أَهْلُ الْعَمَلِ، فَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ بِالْعِلْمِ، لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ)^(٢).

٤ - من بيوت أهل العلم:

❖ آلُ قُدَامَةَ

بيتٌ من البيوتِ الشهيرةِ بالعلمِ، أخرجَ عددًا من أئمةِ الحنابلةِ والعلماءِ والقضاةِ والخطباءِ والمدرسينِ والمُفْتِينَ، وَهُمْ قُرَشِيُّونَ عَدَوِيُّونَ نَسَبًا، مِنْ سَلَالَةِ

(١) من محاضرة ((صفحات مشرقة في عبادات العلماء)) للحضير.

(٢) ((المصدر السابق)).

عمر بن الخطاب، مَقَادِسُهُ موطنًا، صَالِحِيُونَ دَمَاشِقُهُ مُهَاجِرًا، مِنْ أَكْثَرِ الْبُيُوتِ الْحَنْبَلِيَّةِ عِلْمًا، وَفِي (المَقْصِدِ الْأَرْشَدِ) تَرْجَمُهُ لِنَحْوِ خَمْسِينَ عَالِمًا مِنْهُمْ، وَقَدْ أَفْرَدَ عَنْهُمْ الضِّيَاءُ الْمُقَدِّسِيُّ كِتَابًا سَمَّاهُ (سَبَبُ هِجْرَةِ الْمُقَادِسَةِ)؛ وَذَلِكَ لِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَثَرٍ فِي ازْدِهَارِ الْعِلْمِ عَامَةً وَالْمَذْهَبِ الْحَنْبَلِيِّ خَاصَةً، وَنَذَكُرُ مِنْهُمْ:

- جَدُّ آلِ قُدَامَةَ: وَهُوَ خَطِيبُ جَمَاعِيلِ بَيْتِ الْمُقَدِّسِ، أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ قُدَامَةَ بْنِ مَقْدَامِ بْنِ نَصْرِ (ت: ٥٥٥٨هـ). وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الصَّالِحِينَ، هَاجَرَ مِنْ جَمَاعِيلَ إِلَى الصَّالِحِيَّةِ بِدَمَشَقَ، فَنَزَلَ وَأَهْلُهُ بِمَسْجِدِ أَبِي صَالِحٍ، ثُمَّ انْتَقَلُوا إِلَى الْجَبَلِ.

- أبا عمرَ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ قُدَامَةَ بْنِ مَقْدَامِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٥٥٥٨هـ)، وَقَدْ بَنَى الْمَدْرَسَةَ الْعُمَرِيَّةَ الشَّيْخِيَّةَ فِي الصَّالِحِيَّةِ بِدَمَشَقَ، وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ إِحْيَاءِ لِلسُّنَّةِ وَإِمَاتَةً لِلْبِدْعَةِ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ (وَهُوَ عَالِمٌ فَاضِلٌ) وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَعُمَرُ، وَبِهِ كَانَ يُكْتَبُ.

- الْمُؤَوَّقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ قُدَامَةَ بْنِ مَقْدَامِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٦٢٠هـ)، وَقَدْ مَاتَ أَوْلَادُهُ الثَّلَاثَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَلَمْ يُعَقِّبْ مِنْ وَلَدِهِ سِوَى عَيْسَى (وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَجْلَاءِ) خَلَفَ وَوَلَدَيْنِ وَمَاتَا، وَانْقَطَعَ عَقْبُهُ.

وَمِنْ مُصَنَّفَاتِ الْمُؤَوَّقِ: (الْمُعْنِي)، وَ(رَوْضَةُ النَّاظِرِ)، وَ(لَمْعَةُ الْإِعْتِقَادِ)، وَغَيْرُهَا مِنَ الْكُتُبِ النَّافِعَةِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْأَسْرَةِ الْمُبَارَكَةِ، ابْنُ خَالَةِ الْمُؤَوَّقِ، وَهُوَ عَبْدُ الْغَنِيِّ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْمُقَدِّسِيِّ، صَاحِبُ (عُمْدَةِ الْأَحْكَامِ)، وَ(الْكَمَالِ فِي أَسْمَاءِ الرِّجَالِ) الَّذِي

هَدَّبَهُ الْمَزِّي فِي كِتَابِهِ (تَهْدِيْبِ الْكَمَالِ).

- عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ قُدَامَةَ، وَيُعْرَفُ بِابْنِ أَبِي عَمَرَ (ت: ٦٨٢هـ)، وَهُوَ صَاحِبُ (الشرح الكبير)، وَهُوَ شَرَحَ لِكِتَابِ (المقنع) لِعَمِّهِ الْمُؤَقَّقِ ابْنِ قُدَامَةَ.

- نَجْمُ الدِّينِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ قُدَامَةَ (ت: ٦٨٩هـ)، وَهُوَ صَاحِبُ كِتَابِ (مختصر منهاج القاصدين)، وَكَانَ خَطِيبًا وَمُدْرَسًا وَقَاضِيًا.

وَقَدْ تَفَرَّغَ مِنْ بَيْتِ آلِ قُدَامَةَ ثَلَاثَةَ بَيُوتٍ مِنْ بَيُوتِ الْعُلَمَاءِ: بَيْتُ ابْنِ عَبْدِ الْهَادِي، وَبَيْتُ قَاضِيِ الْجَبَلِ، وَبَيْتُ بَنِي زُرَيْقٍ.

❖ الألويسيون

أَسْرَةٌ عِرَاقِيَّةٌ شَرِيفَةٌ، قَدْ اشْتَهَرَ مِنْهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ:

- مَحْمُودُ شُكْرِي الألويسي، أَبُو الثَّنَاءِ، (ت: ١٢٧٠هـ) صَاحِبُ تَفْسِيرِ (رُوحِ الْمُعَانِي)، وَ(الأجوبة العراقية)، وَمَذْهَبُهُ مَشُوبٌ بَيْنَ مَذْهَبِ السَّلَفِ، وَالْأَشْعَرِيَّةِ، وَالتَّفْوِيضِ، وَالتَّصَوُّفِ.

- نَعْمَانُ خَيْرُ الدِّينِ الألويسي، (ت: ١٣١٧هـ)، وَهُوَ ابْنُ أَبِي الثَّنَاءِ، صَاحِبُ (جَلَاءِ الْعَيْنَيْنِ فِي مُحَاكِمَةِ الأَحْمَدِيِّينَ)، وَ(الجواب الفسيح على ما لَفِقَهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ)، وَكَانَ مَشْهُورًا بِالْوَعْظِ، وَهُوَ سَلَفِي العَقِيدَةِ.

- مَحْمُودُ شُكْرِي بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بِهَاءِ الدِّينِ بْنِ أَبِي الثَّنَاءِ، أَبُو المَعَالِي،

(ت: ١٣٤٢هـ)، وهو حفيد أبي الثناء، وهو صاحبُ (غاية الأمان في الردِّ على التَّبْهَانِي)، و(صَبَّ العذاب على مَنْ سَبَّ الأَصْحَاب)، و(مسائل الجاهلية)، وكان مستقيمَ المنهج.

❖ الغَمَارِيُّونَ:

الغَمَارِيُّ نسبةٌ إلى قبيلةِ غَمَارَةَ، في شمالِ المغربِ، واشتهرَ بها (٧) إخوةٌ اشتغلوا بالعلم، وهم:

- أبو الفيض أحمد بن محمد بن الصِّدِّيقِ الغَمَارِيُّ (ت: ١٣٨٠هـ)، وهو أكبرُ إخوتهِ سنًّا، وعلمًا، وقد تتلمذوا عليه، برزَ في كثيرٍ من العلوم، وله مصنفاتٌ كثيرةٌ بلغت (١٢٠) مصنفًا، كثيرٌ منها في الحديث، وقد صحَّحَ أحاديثَ مشهورةً الضَّعْفِ، أمَّا عَقِيدَتُهُ فهو صُوفِيٌّ، قُبُورِيٌّ أَلْفَ (إحياء المقبور بأدلة بناء المساجد والقباب على الثُّبُور)، وهو شِيعِيٌّ يَطْعُنُ في مُعَاوِيَةَ، وأبيه، وعمرو بن العاص، وغيرهم، ويَطْعُنُ في أئمةِ أهلِ السُّنَّةِ، كابن تَيْمِيَّةَ، والدَّهْيِيَّ، وابنِ عبدِ الوَهَّابِ، وَلَهُ طَامَّاتٌ، كالقولِ بوحدةِ الوجودِ، وإيمانِ فِرْعَوْنَ، وتَصَرُّفِ الأولياءِ في الكونِ.

- أبو الفضل عبد الله (ت: ١٤١٣هـ)، برزَ في الفقه، والحديث، وله مصنفاتٌ كثيرةٌ، بلغت تسعةً وخمسين كتابًا، منها:

(الإعلامُ بأنَّ التَّصَوُّفَ من شريعةِ الإسلامِ)

(إرغامُ المبتدعِ العَبِّيِّ بجوازِ التوسلِ بالنَّبِيِّ)

(استمدادُ العون في بيانِ كفرِ فِرْعَوْنَ) يَرُدُّ فِيهِ عَلَى أُخِيهِ.

وله تحقيقاتٌ على عِدَّةِ كُتُبٍ مِنْهَا: (المقاصِدُ الحَسَنَةُ)، و(تَنْزِيهِ الشَّرِيعَةِ).

وله ردودٌ على الشيخِ الألبانيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

- عَبْدُ الحَيِّ، تَوَسَّعَ فِي عِلْمِ الأَصُولِ، مَعَ المِشَارَكَةِ فِي غَيْرِهِ.

- عَبْدُ العَزِيزِ (ت: ١٤١٨ هـ)، تَوَسَّعَ فِي مَعْرِفَةِ الحَدِيثِ، مَعَ المِشَارَكَةِ فِي

غَيْرِهِ مِنَ العُلُومِ.

- الحَسَنُ، وَكَانَتْ لَهُ مِشَارَكَةٌ فِي سَائِرِ الفُنُونِ.

- إِبْرَاهِيمُ، تَخَرَّجَ مِنْ دَارِ الحَدِيثِ الحَسَنِيَِّّةِ، وَنَالَ دَرَجَةَ الدُّكْتُورَاهِ.

- مُحَمَّدُ الزَّمْرَمِيُّ (ت: ١٤٠٨ هـ)، وَهُوَ أَحْسَنُهُمْ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ

بَعْضُ المُواخِذَاتِ أَيْضًا، وَقَدْ أَعْلَنَ تَبَرُّأَهُ مِنْ بَدْعِ وَضَلَالَاتِ أُسْرَتِهِ، وَأَلْفَ

كِتَابٍ (الزَّائِيَةُ وَمَا فِيهَا مِنَ البَدْعِ والأَعْمَالِ المُنكَرَةِ)، وَقَاطَعَ إِخْوَتَهُ، وَعَمِلَ

عَلَى نَشْرِ السُّنَّةِ فِي شِمَالِ المَغْرِبِ، لَهُ مُصَنَّفَاتٌ، مِنْهَا:

(رِسَالَةٌ فِي شَرْحِ لا إِلَهَ إِلا اللهُ)

(إِعْلَامُ المِسْلِمِينَ بِوَجُوبِ مَقَاتِعَةِ المِبتَدِعِينَ وَالفُجَّارِ وَالظَّالِمِينَ) رَدٌّ فِيهِ

عَلَى أُخِيهِ عَبْدِ اللهِ.

وَكُلُّهُمْ يَجْمَعُهُمُ التَّشْيِيعُ، وَالتَّصَوُّفُ، مَا عَدَا مُحَمَّدًا الزَّمْرَمِيَّ.

٥- فائدة:

❖ عقيدة بعض أئمة اللغة:

مِنَ اللُّغَوِيِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ:

- ١- الخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب كتاب (العين).
- ٢- عمرو بن عثمان، المعروف بسيبويه.
- ٣- علي بن حمزة الكسائي، صاحب كتاب (معاني القرآن).
- ٤- الأصمعي، صاحب كتاب (الأضداد).
- ٥- القاسم بن سلام الهروي .
- ٦- إبراهيم بن عرفة، المشهور بنقطويه.
- ٧- أحمد الشيباني، المشهور بنعلب.
- ٨- إبراهيم بن إسحاق الحرابي، صاحب (غريب الحديث).
- ٩- ابن قتيبة الدينوري.
- ١٠- الأزهرى، صاحب (تهذيب اللغة).
- ١١- أبو جعفر النحاس، صاحب (معاني القرآن).
- ١٢- أحمد بن فارس، صاحب (معجم مقاييس اللغة).
- ١٣- بديع الزمان الهمداني، صاحب المقامات^(١).

وَمِنَ اللُّغَوِيِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى عَقِيدَةِ الْمُعْتَزَلَةِ:

- ١- قُطْرُبٌ، صاحب (المثلث).

(١) ((مناهج اللغويين في تقرير العقيدة)) لمحمد الشيخ عليو (ص: ١٥١ - ٤٤٣).

- ٢- الأَخْفَشُ الأَوْسَطُ، صَاحِبُ (مَعَانِي الْقُرْآنِ).
- ٣- أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ، صَاحِبُ (الْحُجَّةَ لِلْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ).
- ٤- الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ، صَاحِبُ (المَحِيطُ فِي اللُّغَةِ).
- ٥- ابْنُ جَيْ، صَاحِبُ (الْحَصَائِصِ).
- ٦- الجَوْهَرِيُّ، صَاحِبُ (الصَّحَّاحِ).
- ٧- أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ، صَاحِبُ (الْفُرُوقِ اللُّغَوِيَّةِ)^(١).



(١) ((مناهج اللغويين في تقرير العقيدة)) لمحمد الشيخ عليو (ص: ٤٥٥ - ٦٥٠).

سابعًا: إضاءات على أنواع العلوم

١- أنواع العلوم:

❖ من ناحية النفع:

قال ابن القيم في بيان أنواع العلوم: (نوعٌ تَكْمُلُ النَّفْسُ بِإِدْرَاكِهِ، وَالْعِلْمُ بِهِ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ، وَأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَكُتُبِهِ، وَأَمْرِهِ، وَنَهْيِهِ. وَنَوْعٌ لَا يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ بِهِ كَمَالٌ، وَهُوَ كُلُّ عِلْمٍ لَا يَضُرُّ الْجَهْلُ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ بِهِ.

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيدُ بالله من علمٍ لا ينفعُ، وهذا حالُ أكثرِ العلومِ الصحيحةِ المطابقةِ، التي لا يَضُرُّ الْجَهْلُ بِهَا شَيْئًا، كَالْعِلْمِ بِالْفَلَكَ، وَدَقَائِقِهِ، وَدَرَجَاتِهِ، وَعَدَدِ الْكَوَاكِبِ، وَمَقَادِيرِهَا، وَالْعِلْمِ بَعْدِ الْجِبَالِ، وَالْوَاهِيَّاتِ، وَمَسَاحَتِهَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَشَرَفُ الْعِلْمِ بِحَسَبِ شَرَفِ مَعْلُومِهِ، وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَتَوَابِعُ ذَلِكَ^(١).

وقال أيضًا: (فما أشدّها من حَسْرَةٍ، وما أعظمها من غَبْنَةٍ على من أَفْتَى أَوْقَاتَهُ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا فَهَمَ حَقَائِقَ الْقُرْآنِ، وَلَا بَاشَرَ قَلْبَهُ أَسْرَارُهُ وَمَعَانِيَهُ! فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ)^(٢).

(١) ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٠).

(٢) ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/١٧٣).

❖ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَايَةِ وَالْوَسِيلَةِ:

قال ابن خلدون:

(فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدٌ، فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِعَةِ الْكَلَامِ فِيهَا، وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ، وَاسْتِكْشَافِ الْأَدَلَّةِ، وَالْأَنْظَارِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا فِي مَلَكَتَيْهِ، وَإيضًا مَعَانِيَهَا الْمَقْصُودَةَ، وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ آلَةٌ لِغَيْرِهَا، مِثْلُ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْمُنْطِقِ، وَأَمْثَالِهِمَا؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةٌ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطْ، وَلَا يُوسَّعُ فِيهَا الْكَلَامُ، وَلَا تُفَرَّغُ الْمَسَائِلُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَخْرُجُ بِهَا عَنِ الْمَقْصُودِ؛ إِذِ الْمَقْصُودُ مِنْهَا مَا هِيَ آلَةٌ لَهُ، لَا غَيْرُ، فَكُلَّمَا خَرَجَتْ عَنْ ذَلِكَ؛ خَرَجَتْ عَنِ الْمَقْصُودِ، وَصَارَ الْإِشْتِغَالُ بِهَا لَعْوًا، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ صَعُوبَةِ الْحَصُولِ عَلَى مَلَكَتَيْهَا، بِطُولِهَا، وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا، وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَائِقًا عَنْ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ؛ لِطُولِ وَسَائِلِهَا، مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهْمٌ، وَالْعَمْرُ يَقْصُرُ عَنْ تَحْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، فَيَكُونُ الْإِشْتِغَالُ بِهَذِهِ الْعُلُومِ الْآلِيَّةِ تَضْيِيعًا لِلْعَمْرِ، وَشُغْلًا بِمَا لَا يُغْنِي^(١)).

و(العلوم المساعدة، أو ما يُسمَّيه بعض أهل العلم بعلوم الآلة، كاللغة العربية، والبلاغة، والأصول، والمصطلح، وعلوم القرآن، يُطلب منها ما يُحقَّقُ المقصود الأصلي، وهو القيام بعبادة الله تعالى، التي خُلِقْنَا مِنْ أَجْلِهَا، وَإِلَّا دَخَلَ ذَلِكَ فِي بَابِ التَّرَفِّ الْعِلْمِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فلا يُطلب من طالب علم النحو، أن يكون كسيبويه، ومن طالب اللغة، أن يكون كالخليل، والأزهري، ومن طالب البلاغة، أن يكون كالجزجاني،

(١) ((مقدمة ابن خلدون)) (١/٦٢٢).

يَكْفِيهِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ مَا يَحْتَاجُهُ لَفَهْمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَالْقِيَامِ بِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ^(١).

٢ - أَمِيَّةُ التَّخَصُّصِ فِي فَنِّ مُعَيَّنٍ:

قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيُّ: (إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ عَالِمًا فَاقْصِدْ لَقْنَ مِنْ الْعِلْمِ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ أَدِيًّا فَخُذْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ)^(٢).

قَالَ أَبُو عبيدِ القاسمِ بنِ سلامٍ: (مَا نَاطَرَنِي رَجُلٌ قَطُّ، وَكَانَ مَفْنَنًا فِي الْعِلْمِ إِلَّا غَلَبْتُهُ، وَلَا نَاطَرَنِي رَجُلٌ ذُو فَنٍّ وَاحِدٍ إِلَّا غَلَبَنِي فِي عِلْمِهِ ذَلِكَ)^(٣).

وذلك لأنَّ (للعلمِ دقائق لا يعرفُ المُتَفَنُّونَ عنها شيئًا، أمَّا المُتَخَصِّصُونَ فقد خَبَرُوهَا، وقادَتْهُمُ إِلَى دقائقِ الدقائقِ، فَهُمُ فقهاءُ العلومِ حقًّا، وأطبَّاءُ الفنونِ صدقًا).

قال الحسنُ بنُ محمدٍ الصباحِ الزَّعْفَرَانِيُّ تلميذُ الشَّافِعِيِّ: سمعتُ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ: مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا فَلْيُدَقِّقْ؛ لِكَيْلَا يَضِيعَ دَقِيقُ الْعِلْمِ^(٤).



(١) ((التأصيل في طلب العلم)) لبازمول.

(٢) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٥٢٢/١).

(٣) ((المصدر السابق)) (٥٢٣/١).

(٤) ((نصائح منهجية)) لحاتم العوني (ص: ٣٥)، بتصرف.

ثامناً: إضاءات على التصنيف والتحقيق

١ - التصنيف:

❖ علو الهمة في التصنيف:

قال أبو عبيدٍ عن كتابه "غريب الحديث": (مكثتُ في تصنيفِ هذا الكتابِ أربعينَ سنةً، وربما كنتُ أستفيدُ الفائدةَ من أفواهِ الرجالِ، فأضعُها في الكتابِ، فأبيتُ ساهراً فرحاً منيّ بتلكِ الفائدةِ، وأحدكم يجيئني، فيقيمُ عندي أربعةَ أشهرٍ، خمسةَ أشهرٍ، فيقول: قد أقيمتُ الكثيرَ^(١)).

وهذا الإمامُ محمدُ بنُ جريرِ الطبريُّ (قالَ رحمه اللهُ لأصحابه: هل تَنشَطُونَ لتاريخِ العالمِ من آدمَ إلى وقتنا؟ قالوا: كمَ قَدْرُهُ؟ فذكرَ نحوَ ثلاثينَ ألفَ ورقةٍ. فقالوا: هذا ممَّا تَفنى الأعمارُ قبلَ تمامه. فقال: إنَّا لله... ماتِ المهْمُ. فاختصرَ ذلكَ في نحوِ ثلاثةِ آلافِ ورقةٍ. ولمَّا أن أرادَ أن يُملِيَ التفسيرَ قالَ لهمُ نحوًا من ذلكَ، ثمَّ أملاه على نحوٍ من قدرِ التاريخ)^(٢).

وهذا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ، لم يمنعهُ السجُنُ من التأليفِ؛ قالَ تلميذه الحافظُ عمرُ البزارُ: (ومنَ أعجبِ الأشياءِ في ذلكَ أنه في محنتِهِ الأولى بمصرَ، لمَّا أخذَ وسُجِنَ، وحيلَ بينه وبينَ كُتبه، صنَّفَ عدةَ كتبٍ صغارًا وكبارًا، ودكَّرَ فيها ما احتاجَ إلى ذكرِهِ من الأحاديثِ والآثارِ، وأقوالِ العلماءِ، وأسماءِ المحدثينَ والمؤلفينَ ومؤلفاتهم، وعزا كلَّ شيءٍ من ذلكَ إلى ناقلِهِ وقائلِهِ

(١) ((تاريخ بغداد)) للخطيب البغدادي (٤٠٧/١٢).

(٢) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٢٧٤/١٤، ٢٧٥).

بأسمائهم، وذكر أسماء الكُتُب التي دُكِرَ فيها، وأيِّ موضعٍ هو منَها؛ كلُّ ذلك بديهةً من حفظه؛ لأنَّه لم يكن عنده حينئذٍ كتابٌ يطالعُه. ونُقِّبَتْ واختُبرَتْ واعتُبرَتْ؛ فلم يوجد فيها بحمدِ اللهِ خللٌ ولا تغييرٌ، ومن جملتها كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول^(١).

ولقد أفنى ابن القيم حياته متقلِّبًا في أعطافِ العلم، في حلِّه وترحالِه، في سفره وإقامته،... لم يشغله شيءٌ من ذلك عن التأليفِ والنظرِ، فابنُ القيم وإن سافر لا يحملُ إلا زادًا ومزادًا، فمكتبته في صدره، ويكفي في هذا أنَّه أَلَفَ جملةً من كتبه في حالِ سفره عن وطنه وبعده عن مكتبته، وهي: مفتاح دار السعادة - روضة المحبِّين - زاد المعاد - بدائع الفوائد - تهذيب سنن أبي داود^(٢).

❖ حول منهج التأليف:

(إنَّ بعضَ الكتاباتِ الإسلامية تميلُ إلى التَّنظيرِ الثقافيِّ، ولا يتَّم تنزيلُها على أرضِ الواقعِ الذي تعيشُه الأُمَّةُ، فهناك فجوةٌ عميقةٌ، فسيحةٌ بينَ الهَمِّ الثقافيِّ، والمعاناةِ اليوميةِ التي تعيشُها الأُمَّةُ الإسلاميةُ، وإنَّ التجريدَ والإغراقَ في التَّنظيرِ، وتحويلِ الكتابةِ إلى متعةٍ ثقافيةٍ، أو أطروحاتٍ فنيةٍ، لا يخدمُ الدعوةَ الإسلاميةَ بحالٍ، فما لم تتحولِ الأطروحاتُ الثقافيةُ إلى مشروعاتٍ عملٍ، وإنجازاتٍ مُشاهدةٍ ملموسةٍ؛ فإنها تبقى كلماتٍ باردةً، لا حياةَ فيها.

(١) ((الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية)) لعمر البزار (ص: ٢٢).

(٢) ((صلاح الأُمَّة في علوِّ الهمة)) لسيد العفاني (١/٥١٦).

إِنَّ الكِتَابَةَ الإِسْلَامِيَّةَ لَيْسَتْ صِنْعَةً يَتَكَسَّبُ بِهَا المرءُ، أَوْ هَوَايَةً يَشْعَلُ بِهَا وَقْتَهُ، وَإِنَّمَا هِيَ إِحْسَاسٌ بِالمَسْئُولِيَّةِ، يَنْبِضُ بِمَشْكَلاتِ الأُمَّةِ، وَاحْتِياجَاتِهَا^(١).

(إِنَّ المنهجَ العلميَّ يقتضي عرضَ الأقوالِ، والحججِ، بأمانةٍ كاملةٍ، ثم يرجحُ بناءً على القواعدِ العلميةِ المتبعةِ، عند علماء الأُمَّةِ؛ للترجيحِ بينَ الأقوالِ، قال ابنُ تيميَّةَ: (يجبُ أن يكونَ الخطابُ، في المسائلِ المشكَلَةِ، بطريقِ ذكرِ دليلٍ كُلِّ قولٍ، ومعارضَةِ الآخرِ له؛ حتى يتبيَّنَ الحقُّ بطريقِهِ، لمن يريدُ اللهُ هدايَتَهُ)^(٢).

❖ أغراضُ التأليفِ:

قال حاجي خليفة: (ثمَّ إِنَّ التَّأليفَ على سَبْعَةِ أقسامٍ، لا يُؤلَّفُ عالمٌ عاقلٌ إلاَّ فيها، وهي: إمَّا شيءٌ لم يُسبَقْ إليه فيخترِعُهُ، أو شيءٌ ناقصٌ يُتَمَّمُهُ، أو شيءٌ مُعلَّقٌ يشرِّحُهُ، أو شيءٌ طويلٌ يختصرُهُ دونَ أن يخلَّ بشيءٍ من معانيهِ، أو شيءٌ متفرِّقٌ يجمَعُهُ، أو شيءٌ مختلطٌ يرتبُهُ، أو شيءٌ أخطأ فيه مصنِّفُهُ فيُصلِّحُهُ)^(٣).

قال الإمام النوويُّ في بيانِ آدابِ التأليفِ: (ينبغي أن يكونَ اعتناؤُهُ منَ التصنيفِ بما لم يُسبَقْ إليه أكثرُ، والمرادُ بهذا ألاَّ يكونَ هناكُ مصنِّفٌ يُغني عن مصنِّفِهِ في جميعِ أساليبِهِ، فإنَّ أغنى عن بعضها، فلْيُصنَّفَ من جنسِهِ ما

(١) ((الكتاب الإسلامي)) لأحمد الصويان (ص: ٧٢).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

(٣) ((كشف الظنون)) لحاجي خليفة (١/٣٥).

يزيد زياداتٍ، يحتفلُ بِهَا مع ضمِّ ما فاتَهُ من الأساليبِ^(١).
وقال الزركشي: (فائدةٌ:

كَانَ بعضُ المشايخِ يقولُ: العلومُ ثلاثةٌ:

علمٌ نضجَ وما احترقَ، وهو علمُ الأصولِ والتَّحْوِ.

وعلمٌ لا نضجَ ولا احترقَ، وهو علمُ البيانِ والتفسيرِ.

وعلمٌ نضجَ واحترقَ، وهو علمُ الفقهِ والحديثِ.

وكانَ الشيخُ صدرُ الدِّينِ بنُ المرحلِ رحمهُ الله يقولُ: ينبغي للإنسانِ أن يكونَ في الفقهِ قِيَمًا، وفي الأصولِ راجِحًا، وفي بَقِيَّةِ العلومِ مُشَارِكًا.

وقالَ صاحبُ الأُحُوذِيِّ: ولا ينبغي لحصيفٍ أن يتصدَّى إلى تصنيفٍ أن يعدلَ عن غرضينِ إما أن يخرعَ مَعْنَى، وإما أن يتبدعَ وضعًا ومبنيًا، وما سوى هَـذَينِ الوجهينِ فهو تسويدُ الورقِ، والتَّحْلِي بِجَلِيَةِ السَّرِقِ^(٢).

٢ - تنبيهاتٌ ومحاذيرُ تتعلقُ بالتحقيق:

❖ مجافاةُ بعضِ كُتُبِ التراثِ المنشورةِ لمقتضياتِ التحقيق:

(تُقَلَّبُ النظرُ في بعضِ ما يُنشرُ من كُتُبِ التراثِ، فتجدُ فيها مجافاةً صريحةً لما يَتَطَلَّبُهُ التحقيقُ بحسبِ أصولِهِ المعروفةِ، حيثُ تبحثُ عن نُسخِ الكتابِ الحَظِيَّةِ فتجدُ الاعتمادَ على نُسخِ سقيمةٍ مع وجودِ ما هو أفضلُ

(١) ((المجموع)) للنووي (٣٠/١).

(٢) ((المنثور في القواعد)) للزركشي (٧٢/١).

منها، وقد لا تجد تنويهاً بالنسخ، أو تعريفاً بها، وتبحث عن إثبات الفروق بين النسخ فلا تكاد تجد شيئاً، وتبحث عن الضبط بالشكل فتجد الإهمال الواضح، وتبحث عن التصحيح والتصويب فيقابلك ما يُعكّرُ صفوك من التصحيفات والتحريفات، والتسرع في إكمال السقط، والخرم الموجود في النسخة على غير أساس علمي يتلاءم مع النص، مما ينم عن جهل فاضح بأصول التحقيق وأساليب اللغة العربية، وتبحث عن تخريج النصوص فتفاجأ بالتغاضي عن الكثير، والقصور الواضح الذي لا يشفي الغليل، وتبحث عن الفهارس فلا تتف في بعض الأحيان على شيء، وإن وجد فقد لا يكون سوى فهرس الموضوعات، ومع ذلك تجاهد الجراءة بكتابة تحقيق فلان بن فلان على غلاف الكتاب، وليس فيه من التحقيق سوى حروف هذه الكلمة ورسمها^(١).

❖ الإحالة إلى الفرع دون الأصل:

(يعمد المحقق إلى توثيق النصوص الواردة في الكتاب من كتبه هو ويترك الكتب الأصول التي أخرجت هذا النص، والأصل أن يتكلم عن هذا النص في موضعه من هذا الكتاب، فقد لا يتيسر الوقوف على كتابه الآخر، هذا إن كان ما أحال إليه كتاباً مطبوعاً، أو موجوداً فعلياً، لا ذهنيًا)^(٢).

❖ إنقال الكتب بالحواشي:

(يسرف بعض المحققين في التعليقات والحواشي والنقول التي يُنقل بها

(١) (تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل) لعبد الله بن عسيان (ص: ٧٦).

(٢) (مزالقي التحقيق) للشمراني.

كاهل النصّ المُحَقِّقِ حتى تطعَى عليه، بحيثُ نجدُ في بعضِ النصوصِ المحققة سطرًا واحدًا من النصِّ في أعلى الصفحة، والباقي للتعليقاتِ والحواشي، وأحيانًا يتحولُ هذا السطرُ إلى مجردِ نقطٍ يفصلُها خطُّ تحتهُ تعليقٌ يستغرقُ صفحاتٍ عديدةً حولَ نقطةٍ واحدةٍ، وكثيرٌ من هذه التعليقاتِ والحواشي يُتَزَيَّدُ فيها بشكلٍ لا تدعو الحاجةُ أو الضرورةُ إليه، وربما كانت مجردَ نقلٍ من المصادر؛ رغبةً في الاستكثارِ، والتظاهرِ بسعةِ الاطلاعِ^(١).

❖ المشاغبةُ في التعليقِ والتعقيبِ:

(يأتي الباحثُ فيعلِّقُ على كلامِ أحدِ العلماءِ، أو يتعقبُه، فيأتي بجملةٍ اعتراضيةٍ، خارجةٍ عن أدبِ الحوارِ العلميِّ، وليسَ فيها فائدةٌ، فالكتبُ العلميةُ، وكذلك التحقيقُ العلميُّ، ينبغي أن تتسمَ بالجديةِ، والبعدِ عن الأساليبِ الصحفيةِ، والمهاراتِ الكلاميةِ...

فيجبُ على المؤلِّفِ، أو المحققِ، أن يصبَّ جهدهُ في الموضوعِ الذي يتولاهُ، ويحاولَ قدرَ استطاعتهِ، تقليلَ التساؤلاتِ وعلاماتِ التعجبِ، والكلامِ غيرِ العلميِّ، الذي لا يخدمُ البحثَ، دونَ التعرضِ لشخصِ المصنِّفِ^(٢).

❖ عدمُ الاهتمامِ بمخطوطاتِ الكتابِ:

يقتصرُ البعضُ على إعادةِ طبعِ كتابٍ كانَ قد طُبِعَ قديمًا دونَ تحقيقِهِ على نُسخٍ أخرى، أو البحثِ عن النسخةِ التي طُبِعَ عليها إذا أمكنَ التعرفُ

(١) (تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل) لعبد الله بن عسيان (ص: ٦٥).

(٢) (مزالق في التحقيق) للشمراني.

عليها؛ لأنَّ الكتب التي طُبعت قديمًا لا تُشيرُ إلى المخطوطات التي طُبعت عليها غالبًا. ومع ذلك نجدُ الكتابَ في طبعةٍ جديدةٍ يحملُ عبارةً حَقَّقَهُ فلانٌ، أو لجنةً من العلماء، وتبحثُ عن شيءٍ من مظاهرِ التحقيقِ فلا تجدُ إلا ما يجدهُ الظمانُ الذي ينتظرُ السرابَ^(١).

❖ عدمُ ثقةِ المحقِّقِ في عمله:

(فيطلبُ من أحدِ المشهورينَ، التقديمَ لعمله، ووضعَ اسمه بخطِّ بارزٍ على غلافِ الكتابِ، مُقدِّمًا أو مشرفًا، وقبلَ اسمِ المحقِّقِ؛ بغرضِ ترويجِ الكتابِ، وتسويقه، مثلَ المتاجرةِ بالأسماءِ العلمية، فيحققُ أحدُ الناسِ كتابًا، ولكي يَروِجَ يحاولُ التقديمَ للعلماءِ المشهورينَ؛ رغبةً منهم في نشرِ الكتابِ)^(٢).

ولكن قد يكونُ التقديمُ للكتابِ مطلوبًا، لا سيَّما إذا كان الموضوعُ من الموضوعاتِ العقديَّةِ التي يكونُ التقديمُ لها من أحدِ علماءِ أهلِ السنةِ دليلًا - في الغالبِ - على سلامةِ منهجِ مؤلِّفها وعقيدتهِ.

❖ المتاجرةُ بعناوينَ جديدةٍ للكُتبِ:

وذلك مثل (انتزاعِ بعضِ الأبوابِ من الكُتبِ المنشورةِ والمشهورةِ لمؤلفينَ بارزينَ وتحقيقه ونشره باسمِ البابِ الذي جاءَ به، أو بوضعِ اسمٍ يتناسبُ مع المادةِ المتنوعةِ من الكتابِ).

ومن ذلك أبوابُ انتزعتُ من العقدِ الفريدِ لابنِ عبدِ ربِّه، ومنُ إغائتهِ

(١) ((تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل)) لعبد الله بن عسيان (ص: ٧١).

(٢) ((مزالقي التحقيق)) للشمراني.

اللفهان لابن القيم، ومن الأشباه والنظائر لجلال الدين السيوطي في النحو، ومن إحياء علوم الدين للغزالي، ومن بعض كتب الأحاديث وغيرها، وبعض من يعمدون إلى مثل هذا الصنيع لا يُشيرون إلى أنه منتزَع من الكتاب الفلاني؛ بل زُيِّمًا زادَ بعضُهُم في الإيهام بذكر مخطوط للكتاب الذي انتزع منه الباب، أو الاقتصار منها على القدر المُنتزَع، مما قد يوهم أن المنشور كتابٌ آخر، أو جديدٌ للمؤلف^(١).

٣- أسباب إعادة تحقيق كتاب سبق تحقيقه:

لا بدَّ هنا من الإشارة إلى أمورٍ تُوضَع في الحُساب، عند الرغبة في إعادة تحقيق كتاب سبق نشره وتحقيقه وهي:

(أ) أن يكون المخطوط قد نُشرَ دونَ أيَّةِ مراعاةٍ لأصول التحقيق، وقواعده المعروفة.

(ب) أن يكون الكتاب قد نُشرَ على مخطوطةٍ واحدةٍ سقيمة، أو أكثرَ من مخطوطةٍ بهذه الحالة، مع وجود مخطوطاتٍ أُخرى نقيسةً للكتاب، ولكنها أُهملت، ولم تُوضَع في الحُساب.

(ج) أن يكون الكتاب قد نُشرَ على مخطوطةٍ واحدةٍ بوصفها نسخةً وحيدةً حسب علم المُحقِّق، ثمَّ ظهرت للكتاب نسخةٌ أُخرى موثقة، وفيها إضافاتٌ، وزياداتٌ، وتصحيحاتٌ، وفروقٌ تُفيد في تقويم نصوص الكتاب وتحريرها.

(١) ((تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل)) لعبد الله بن عسيان بتصرف (ص: ٦٥).

(د) أن يكونَ المُحَقِّقُ السابقُ قد وَقَعَ في أوهامٍ تُؤدِّي إلى الخلطِ في عنوانِ الكتابِ وصحَّةِ نِسْبَتِهِ إلى مؤلِّفِهِ، فيأتي الكتابُ بغيرِ اسمِهِ الذي وُضِعَ لَهُ، أو منسوبًا إلى غيرِ مؤلِّفِهِ، مع الأوهامِ الكثيرةِ في التعليقاتِ والتصحيحاتِ ممَّا يُؤدِّي إلى تشويهِ النصِّ، ثمَّ يأتي المحقِّقُ اللاحقُ ليقومَ ذلكَ كلُّهُ، ويأتي به على الوجهِ الصحيحِ.

(هـ) أن يكونَ المحقِّقُ السابقُ ممن يتصرفُ في صُلْبِ الكتابِ بالإضافاتِ، أو النقصِ أو التغييرِ والتبديلِ على غيرِ أساسٍ، كأنَّ يُضِيفَ عباراتٍ وكلماتٍ من عندهِ في صُلْبِ الكتابِ، لا مبررَ لها، أو يحذفَ منه نصوصًا لأغراضٍ في نفسه، أو يُخلِّ بترتيبِ أبوابِ الكتابِ على خلافِ ما جاءتْ عليه عندَ المؤلِّفِ.

(ز) أن تَشِيعَ في جهدهِ السابقِ، التصحيفاتُ والتحريفاتُ التي تطمسُ معالمَ النصِّ، وتَسْتَوْجِبُ إعادةَ تحقيقِهِ، إلى جانبِ إهمالِ مقدِّمةِ التحقيقِ^(١).

٤ - من أئمةِ المحقِّقين:

(من العلماءِ والمحقِّقينَ الذين أخرجوا للناسِ الكتبَ، ونشروا فيهم آثارَ السلفِ، في الحديثِ، واللُّغةِ، والفقهِ، والتاريخِ، والأدبِ، وغيرِ ذلكَ من فنونِ الإسلامِ، ولا يمتري أحدٌ في أنَّ ما أخرجَ هؤلاءِ أصحُّ نصًّا:

- الشيخُ محمدُ الحسينيُّ: وهو وحدهُ الذي أخرجَ كتابَ (لسانِ العربِ) بأجزائه العِشرينَ.

(١) ((مزالق في التحقيق)) للشمراني.

- الشيخ محمد الزهري الغمراوي: وهو الذي أخرج كتاب (إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين) وهو في عشر مجلدات كبار، وهو وحده الذي أخرج (مسند الإمام أحمد) بأجزائه الستة المعروفة.

- الشيخ إبراهيم الدسوقي: أخرج وحده (إرشاد الساري شرح صحيح البخاري) للقسطلاني بأجزائه العشرة.

وكان في مصر - مثلاً - المشايخ: محمد العدوي، وطه محمود، ونصر الهوريني، وإبراهيم الفيومي، ومحمد البليسي، وسيّد بن علي المرصفي. وكان في العراق ممن قام على نشر كتب السلف وعلومهم، الشيخ محمود شكري الألوسي.

وفي الشام الشيخ محمد جمال الدين القاسمي.

وكان من أولئك العلماء المتقدمين، من وضع مدرسة تُعلّم أصول النشر، كما فعل الشيخ سيّد بن علي المرصفي المصري، فإنه تخرّج لديه في النشر والتحقيق ثلثة من كبار العلماء، منهم الشيخ أحمد شاكر، وأخوه الشيخ محمود شاكر، والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، فرحمهم الله أجمعين^(١).

ومن المحققين الكبار أيضًا من مصر: عبدالسلام هارون، والسيّد أحمد صقر، وعائشة بنت الشاطي، ومحمود الطناحي، وعبدالفتاح الحلو، ومن سوريا: محمد كرد علي، وعز الدين التنوخي، ومن العراق: محمد بهجة

(١) ((كيف يبني طالب العلم مكتبته)) للخضير، بتصرف.

الأثريُّ، ومصطفى جواد، ومِن المملكة العربية السعودية: حمد الجاسر، ومِن
الجزائر: محمد بن أبي شنب، ومِن تونس: حسن حسني عبد الوهاب، ومِن
المغرب الأقصى: عبدالحَيِّ الكتانيُّ.



تاسعاً: إضاءات على التعليم

١- التَّعْلِيمُ بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ:

(وازن - رَعَاكَ اللَّهُ - بَيْنَ الدَّرَاسَةِ الَّتِي أَمَّرْتَهَا تِلْكَ الرِّحَالَتِ، الَّتِي عَمَّرَتْ الطُّلَابَ الرَّاحِلِينَ عَمْرًا طَوِيلًا، وَبَيْنَ دَرَاةِ طُلَابِ جَامِعَاتِنَا الْيَوْمِ! يَدْرُسُونَ فِيهَا أَرْبَعَ سِنَوَاتٍ، لَا حُضُورَ وَلَا سَمَاعَ، وَلَا مَنَاقِشَةَ وَلَا اقْتِنَاعَ، وَلَا تَطَاعَمَ فِي الْأَخْلَاقِ، وَلَا تَأْسُّ، وَلَا تَصْحِيحَ لِأَخْطَائِهِمْ، وَلَا تَصْوِيبَ، وَلَا تَشْدِيدَ لِمَسَالِكِهِمْ، وَيَتَسَقَّطُونَ الْمُبَاحَثَ الْمَظْنُونَةَ السُّؤَالِ، مِنْ مَقَرَّرَاتِهِمْ (المختصرة)، ثُمَّ يَسْعَوْنَ إِلَى تَلْخِيصِ تِلْكَ الْمَقَرَّرَاتِ، ثُمَّ يَسْعَوْنَ إِلَى إِسْقَاطِ الْبَحْثِ غَيْرِ الْهَامَةِ مِنَ الْمَقْرُوءَاتِ، بِتَلَطُّفِهِمْ وَتَمَلُّقِهِمْ لِبَعْضِ الْأَسَاتِذَةِ، فَيَجِدُونَ مَا يَسُرُّهُمْ، وَإِنْ كَانَ يَضُرُّهُمْ، وَبِذَلِكَ يَفْرَحُونَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَالَوْنَ بِضَخَامَةِ الْأَلْقَابِ، مَعَ فِرَاقِ الْوَطَائِبِ، وَيُجَهِّلُونَ الْعُلَمَاءَ الْأَصْلَاءَ، بِأَرَائِهِمُ الْهَشَّةَ الْبِتْرَاءِ، وَلَمْ يَقْعُدُوا مَقَاعِدَهُمْ، وَلَمْ يَتَذَوَّقُوا بَصَارَةَ التَّحْصِيلِ عِنْدَ الْقَدَمَاءِ! وَلَكِنَّهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَعْلَمُ مِنَ السَّابِقِينَ!

وَيَشْهَدُ الْمُرَاقِبُ لِلْحَالِ الْعِلْمِيَّةِ الْيَوْمِ، كَثْرَةَ مَتَزَايِدَةٍ فِي الْجَامِعِيِّينَ، وَفَقْرًا مَتَزَايِدًا فِي الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ، وَنَقْصًا كَبِيرًا مَشْهُودًا فِي الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ، وَهَذِهِ مَصِيبَةٌ مِنْ أَدْهَى الْمَصَائِبِ، وَاللَّهُ الْمَرْجُوُّ أَنْ يُلْهِمَ الْمُنَوِّطَ بِهِمْ أُمُورَ التَّعْلِيمِ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَنْ يَتَبَصَّرُوا بِالْأَمْرِ، وَيَتَدَارَكُوا هَذَا الْخَطَرَ، قَبْلَ تَأْصُّلِهِ وَإِزْمَانِهِ، وَاسْتَفْحَالِ آثَارِهِ^(١).

(١) ((صفحات من صبر العلماء)) لأبي غدة (ص: ١٠٩، ١١٠)، بتصرف.

٢- آدابُ المُعلِّم:

❖ تَوْفُرُ الْأَهْلِيَّةِ:

على المدرِّسِ (أَلَّا يَنْتَصِبَ لِلتَّدْرِيسِ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَهُ، وَلَا يَذْكَرُ الدَّرْسَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَعْرِفُهُ... قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْمُنْتَشِبُ بِمَا لَمْ يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ)^(١).

وعن الشبليِّ: مَنْ تَصَدَّرَ قَبْلَ أَوَانِهِ، فَقَدْ تَصَدَّى لِهَوَانِهِ.

وعن أبي حنيفة: مَنْ طَلَبَ الرِّيَّاسَةَ فِي غَيْرِ حِينِهِ، لَمْ يَزَلْ فِي ذُلِّ مَا بَقِيَ^(٢).

❖ عَدَمُ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ:

(عن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما: إِذَا أَخْطَأَ الْعَالِمُ (لَا أَدْرِي)، أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ.

وقيل: يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يُورِثَ أَصْحَابَهُ (لَا أَدْرِي)؛ لِكَثْرَةِ مَا يَقُولُهَا.

وقال محمدُ بنُ عبدِ الحَكَمِ: سَأَلْتُ الشَّافِعِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْمُتَعَةِ، أَكَانَ فِيهَا طَلَاقٌ، أَوْ مِيرَاثٌ، أَوْ نَفَقَةٌ تَجِبُ، أَوْ شَهَادَةٌ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي.

وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَ الْمَسْئُولِ: لَا أَدْرِي، لَا يَضَعُ مِنْ قَدْرِهِ، كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْجَهْلَةِ، بَلْ يَرْفَعُهُ؛ لِأَنَّهُ دَلِيلٌ عَظِيمٌ عَلَى عِظَمِ مَحَلِّهِ، وَقُوَّةِ دِينِهِ، وَتَقْوَى رَبِّهِ،

(١) أخرجه البخاري (٥١١٩) ومسلم (٢١٣٠).

(٢) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة (ص: ٤٥)، بتصرف.

وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته^(١).

قال الهيثم بن جميل: سمعت مالكا، سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري.

وعن خالد بن خدائش، قال: قدمت على مالك بأربعين مسألة، فما أجابني منها إلا في خمس مسائل^(٢).

(وسئل -أي مالك- عن مسألة، فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة، سهلة، فغضب، وقال: ليس في العلم خفيف، أما سمعت قول الله تعالى: { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا } [المزمل: ٥]؟ فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يُسأل عنه يوم القيامة^(٣).

قال ابن وهب: (لو كتبتنا عن مالك: لا أدري، ملأنا الألواح)^(٤).

وعن أبي الذئبال قال: (تعلم: لا أدري؛ فإنك إن قلت: لا أدري، علموك حتى تدري، وإن قلت: أدري، سألوكم حتى لا تدري!)^(٥).

قال الآجريُّ مُحذِّراً أهل العلم من ترك (لا أدري)، فيما لا علم لهم به: (وأما الحجّة للعالم يُسأل عن الشيء لا يعلمه، فلا يستنكف أن يقول:

(١) (تذكرة السامع والمتكلم)) لابن جماعة (ص: ٤٢-٤٣).

(٢) (سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٧٧/٨).

(٣) (صفة الفتوى)) لابن حمدان (ص: ٨).

(٤) (جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٨٣٩/٢).

(٥) (المصدر السابق)) (٨٤٢/٢).

لا أعلم، إذا كان لا يعلم، وهذا طريق أئمة المسلمين من الصحابة، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، اتبعوا في ذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان إذا سُئِلَ عن الشيءِ مما لم يتقدّم له فيه علم الوحي من الله عز وجل فيقول: لا أدري. وهكذا يجب على كل من سُئِلَ عن شيءٍ، لم يتقدّم له فيه علم أن يقول: الله أعلم، ولا علم لي به، ولا يتكلف ما لا يعلمه، فهو أعذر له عند الله، وعند ذوي الألباب^(١).

قال السَّعْدِيُّ: (من أعظم ما يجب على المعلمين: أن يقولوا لما لا يعلمونه: الله أعلم، وليس هذا بناقص لأقدارهم، بل هذا مما يزيد قدرهم، ويُسْتَدَلُّ به على كمال دينهم، وتحرّيبهم للصواب.

وفي توقُّفه عما لا يعلم فوائد كثيرة:

منها: أن هذا هو الواجب عليه.

ومنها: أنه إذا توقَّفَ وقال: الله أعلم، فما أسرع ما يأتيه علم ذلك من مراجعته أو مراجعة غيره؛ فإنَّ المتعلِّم إذا رأى مُعلِّمه قد توقَّفَ؛ جدَّ واجتهد في تحصيل علمها وإتحاف المعلم بها، فما أحسن هذا الأثر!

ومنها: إذا توقَّفَ فيما لا يعرف، كان دليلاً على ثقته وأمانته وإتقانه فيما يجزم به من المسائل، كما أن من عُرف منه الإقدام على الكلام فيما لا يعلم؛ كان ذلك داعياً للريب في كل ما يتكلم به، حتى في الأمور الواضحة.

ومنها: أن المعلم إذا رأى منه المتعلِّمون التوقُّفَ فيما لا يعلم؛ كان ذلك

(١) ((أخلاق العلماء)) للآجري (ص: ١٢٨).

تَعْلِيمًا لَهُمْ وَإِرْشَادًا لَهُذِهِ الطَّرِيقَةَ الْحَسَنَةَ، وَالِاقْتِدَاءُ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ أْبْلَغُ
مِنَ الْإِقْتِدَاءِ بِالْأَقْوَالِ^(١).

❖ مَعْرِفَةُ طُرُقِ التَّعْلِيمِ:

قال ابنُ خَلْدُون: (قد شاهدنا كثيرا مِن الْمُعَلِّمِينَ لهذا العهدِ الذي
أدركنا، يَجْهَلُونَ طُرُقَ التَّعْلِيمِ وَإِفَادَاتِهِ، وَيُحْضِرُونَ لِلْمُتَعَلِّمِ فِي أَوَّلِ تَعْلِيمِهِ،
الْمَسَائِلَ الْمُقْفَلَةَ مِنَ الْعِلْمِ، وَيُطَالِبُونَهُ بِإِحْضَارِ ذَهْنِهِ فِي حَلِّهَا، وَيَحْسَبُونَ
ذَلِكَ مَرَاتًا عَلَى التَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ، وَيُكَلِّفُونَهُ رَعِي ذَلِكَ وَتَحْصِيلَهُ، وَيَجْلِطُونَ
عَلَيْهِ بِمَا يُلْقُونَ لَهُ مِنْ غَايَاتِ الْفُنُونِ فِي مَبَادِيئِهَا، وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ
لِقَهْمِهَا)^(٢).

وَتَكَلَّمَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ بَدْرَانَ عَنِ الْجَهْلِ بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ، فَقَالَ:
(وهذا قد وقع فيه غالبُ المُعَلِّمِينَ، فَتَرَاهُمْ يَأْتِي إِلَيْهِمُ الطَّالِبُ الْمَبْتَدِئُ
لِيَتَعَلَّمَ النَّحْوَ مَثَلًا، فَيَشْغَلُونَهُ بِالْكَلَامِ عَلَى الْبَسْمَلَةِ، ثُمَّ عَلَى الْحَمْدَةِ أَيَّامًا،
بَلْ شُهُورًا؛ لِيُوَهِّمُوهُ سَعَةً مَدَارِكِهِمْ وَغَزَارَةً عِلْمِهِمْ!

ثُمَّ إِذَا قُدِّرَ لَهُ الْخِلَاصُ مِنْ ذَلِكَ، أَخَذُوا يُلَقِّنُونَهُ مَتْنًا أَوْ شَرْحًا بِحَوَاشِيهِ
وَحَوَاشِي حَوَاشِيهِ، وَيَحْشُرُونَ لَهُ خِلَافَ الْعِلْمَاءِ، وَيَشْغَلُونَهُ بِكَلَامٍ مَن رَدَّ
عَلَى الْقَائِلِ، وَمَا أُجِيبَ بِهِ عَنِ الرَّدِّ، وَلَا يَزَالُونَ يَضْرِبُونَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ الْوَتْرِ،
حَتَّى يَرْتَكِرَ فِي ذَهْنِهِ أَنْ نَوَالَ هَذَا الْفَرْجَ مِنْ قَبِيلِ الصَّعْبِ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ

(١) ((الفتاوى السعدية)) (ص: ٦٢٨ - ٦٢٩).

(٢) ((مقدمة ابن خلدون)) (ص: ٥٣٣).

إِلَّا مَنْ أُوتِيَ الْوَلَايَةَ، وَحَضَرَ مَجْلِسَ الْقُرْبِ وَالِاخْتِصَاصِ^(١).

قال ابن خلدون: (لا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه، الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم مُبتدئاً كان أو مُنتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه، ويستوي منه على ملكة بها ينقذ في غيره... وكذلك ينبغي لك ألا تطول على المُتعلِّم في الفن الواحد، بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها؛ لأنَّه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها)^(٢).

قال ابن بدران: (وحاصل الأمر، أن الأستاذ ينبغي أن يكون حكيماً، يتصرّف في طرق التعليم بحسب ما يراه موافقاً لاستعداد المتعلم، وإلا ضاع الوقت بقليل من الفائدة، ورُجمالم تُوجد الفائدة أصلاً. وطرق التعليم أمرٌ ذوقِيٌّ، وأمانةٌ مُودعةٌ عند الأساتذة، فمن أداها أثيب على أدائها، ومن جحدها كان مطالباً بها)^(٣).

❖ الاهتمام بأعمال القلوب:

قال الفقيه ابن قدامة: (وأنت تجد الفقيه يتكلّم في الظهار، واللّعان، والسبق، والرّمى، ويفرّع التفريعات التي تمضي الدهور، ولا يحتاج إلى مسألة منها، ولا يتكلّم في الإخلاص، ولا يحدّر من الرّياء! وهذا عليه فرض عين؛

(١) ((المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل)) لابن بدران (١/٢٦٥).

(٢) ((مقدمة ابن خلدون)) (ص: ٥٣٤).

(٣) ((المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل)) لابن بدران (١/٢٦٨-٢٦٩).

لأنَّ في إهماله هلاكه، والأولُ فرضُ كفايةٍ، ولو أنَّه سُئِلَ عن علةِ ترك المناقشةِ للنَّفْسِ في الإخلاصِ والرِّياءِ، لم يكنْ له جوابٌ^(١).

❖ معرفة كيفية طرح الشُّبه والإجابة عنها:

على المدرِّسِ (ألا يذكرُ شُبْهَةً في الدِّينِ في درسٍ، ويُؤخِّرَ الجوابَ عنها إلى درسٍ آخَرَ، بل يذكرُهما جميعاً، أو يدعُهما جميعاً، ولا يتقيَّدَ في ذلك لمصنّفٍ، يلزمُ منه تأخيرُ جوابِ الشُّبهَةِ عنها؛ لما فيه من المسألةِ، لا سيَّما إذا كان الدَّرْسُ يجمعُ الخواصَّ والعوامَّ)^(٢).

❖ التوسُّط في التَّعليم:

(يَنْبَغِي أَلَّا يُطِيلَ المَعْلَمُ الدَّرْسَ تَطْوِيلًا يُمَلُّ، وَلَا يَقْصِرَهُ تَقْصِيرًا يُخْلُ، ويُراعي في ذلك مصلحةَ الحاضرين في الفائدةِ في التَّطْوِيلِ، وَلَا يَبْحَثُ فِي مَقَامٍ أَوْ يَتَكَلَّمُ عَلَى فائِدَةٍ إِلَّا فِي مَوْضِعِ ذَلِكَ، فَلَا يَقَدِّمُهُ عَلَيْهِ وَلَا يُؤخِّرُهُ عَنْهُ، إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ تَقْتَضِي ذَلِكَ وَتَرْجِّحُهُ)^(٣).

❖ ومن آداب المَعْلَمِ مع تلاميذه:

- الشَّفَقَةُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ.
- أَلَّا يَطْلُبَ عَلَى إِفَادَةِ العِلْمِ أَجْرًا.
- أَلَّا يَدَعَّ مِنْ نُصْحِ المَتَعَلِّمِ شَيْئًا.

(١) ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (ص: ٢٧، ٢٨).

(٢) ((تذكرة السامع والمتكلم)) لابن جماعة، بتصرف (ص: ٣٨).

(٣) ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨-٣٩)، بتصرف.

- أن يَزْجُرَ الْمُتَعَلِّمَ عن سوءِ الأخلاقِ، بطريقِ التَّعْرِيفِ ما أمْكَنَ، ولا يُصْرِّحَ.
- ألاَّ يُقْبَحَ في نفسِ المتعلِّمِ العُلُومَ الأُخْرَى، الَّتِي لا يُدْرَسُها هو له.
- أنْ يَفْتَصِرَ بالمتعلِّمِ على قَدْرِ فَهْمِهِ.
- أنْ يَكُونَ المعلِّمُ عاملاً بعِلْمِهِ، فلا يُكذِّبُ قولَه فعْلُهُ^(١).



(١) ((أبجد العلوم)) لصديق حسن خان (١٢٧/١-١٢٩)، بتصرف.

عاشراً: إضاءات في آخر الطريق

١- كن عالماً ربانياً:

قال ابن القيم: (فإذا استكمل العبد هذه المراتب الأربع -أي: العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر عليه- صار من الربانيين؛ فإنَّ السلفَ يجمعون على أنَّ العالم لا يستحقُّ أن يُسمَّى ربانياً؛ حتَّى يعرف الحقَّ، ويعملَ به، ويُعلِّمه^(١)).

(قال الفضيل: العلماءُ كثيرٌ، والحكماءُ قليلٌ، وإنما يُرادُ من العلمِ الحكمةُ، فمن أوتي الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً)^(٢).

٢- تجرّد من الدنيا:

قال عبد الله بن المبارك: (من شرط العالم: ألا تخطر محبة الدنيا على باله. وقيل له: من سفلت الناس؟ قال: الذين يتعيّشون بدِينهم)^(٣).

وروي أنّ مالك بن دينارٍ قال: (سألتُ الحسن: ما عقوبة العالم؟ قال: موت القلب. قلت: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة)^(٤).

(وقيل للإمام أحمد: إنّ ابن المبارك قيل له: كيف يُعرف العالم الصادق؟ فقال: الذي يرهّد في الدنيا ويُقبِلُ على أمر الآخرة).

(١) ((زاد المعاد في هدي خير العباد)) لابن القيم (١٠/٣).

(٢) ((أخلاق العلماء)) للأجري (ص ٩٠).

(٣) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (١٧٨/٨) بنحوه.

(٤) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٤٩/٢).

فقال أحمد: نعم، هكذا ينبغي أن يكون^(١).

وقال الفضيل ابن عياض: (لكثير من علماءكم زيه أشبه بزي كسرى
وقصر منه بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ إن النبي صلى الله عليه وسلم لم
يضع لينة على لينة، ولا قصبه على قصبه، ولكن رفع له علم فشمر
إليه)^(٢).

قال الشيخ بكر أبو زيد: (إن بلغت منصبًا، فتذكر أن حبل الوصل إليه
طلبك للعلم، فبفضل الله ثم بسبب علمك، بلغت ما بلغت من ولاية في
التعليم، أو الفتيا، أو القضاء... وهكذا فأعط العلم قدره وحظه من العمل
به، وإنزاله منزلته.

واحدز مسلك من لا يرجون لله وقارًا، الذين جعلوا الأساس حفظ
المنصب، فيطؤون ألسنتهم عن قول الحق، ويحملهم حب الولاية على
المجارة.

فالزم -رحمك الله- المحافظة على قيمتك بحفظ دينك وعلمك، وشرف
نفسك، بحكمة ودراية، وحسن سياسة^(٣).

وقال -أيضًا-: (وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي - المتوفى في
١٣٩٣/١٢/١٧ هـ رحمه الله تعالى - مُتَقَلِّلاً مِنَ الدُّنْيَا، وَقَدْ شَاهَدْتُهُ لَا
يَعْرِفُ فِئَاتِ الْعُمَلَةِ الْوَرَقِيَّةِ، وَقَدْ شَافَهَنِي بِقَوْلِهِ:

(١) ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٥٦/١).

(٢) ((أخلاق العلماء)) للأجري (ص: ٩٠).

(٣) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص: ٥٣).

لقد جئتُ من البلادِ - شنقيط - ومعِي كَنْزُ قَلِّ أَنْ يَوْجَدَ عِنْدَ أَحَدٍ، وهو (القنّاعة)، ولو أردتُ المناصبَ، لعرفتُ الطريقَ إليها، ولكي لا أُوتِرَ الدُّنيا على الآخرةِ، ولا أبدلُ العِلْمَ لنيلِ المآربِ الدُّنيويّةِ^(١).

وقال الشيخُ عبدُ الرَّحْمَنِ السُّديسِ عَنِ الشَّيْخِ الشَّنْقِيطِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: (أَهْدَى لَهُ الأَمِيرُ عَبْدِ اللهِ بِنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آلِ سَعُودٍ شَقِيقُ المَلِكِ عَبْدِ العَزِيزِ، بَيْتًا فِي الطَّائِفِ، فَردّه، ولم يَقْبَلْهُ، فَسُئِلَ عَن ذلِكَ، فَقَالَ: "الَّذِي بَنَاهُ يَحْتَاجُهُ لِنَفْسِهِ، أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَتِبْهُ وَلَا أَحْتَاجُهُ، وَعِنْدِي بَيْتٌ فِي المَدِينَةِ يَكْفِينِي"، وَقَدْ رَأَيْتُ بَيْتَهُ فِي بَابِ الكَوْمَةِ بِالمَدِينَةِ، وَهُوَ بِنَاءٌ شَعْبِيٌّ، أَي: سَقْفُهُ مِن خَشَبٍ، لَا مِن حَدِيدٍ، يَقَعُ فِي دَوْرَيْنِ، فِي كُلِّ دَوْرٍ أَرْبَعُ عُرْفٍ، وَكَانَ الأَسْفَلُ مِنْهُمَا يَعْصُ بِطَلْبَةِ العِلْمِ مِنَ المَغْتَرِبِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ يَشْرَبُ مَاءَ الزَّرِيرِ، وَلَا يَشْرَبُ مِنَ الثَّلَاجَةِ إِلَّا قَلِيلًا، وَيَجْلِسُ عَلَى الحَصِيرِ، وَيَأْخُذُ أَوْرَاقَهُ فِي الدَّهْلِيْزِ وَيُطَالِعُ. وَكَانَ الأَمِيرُ المَذْكُورُ أَنفًا قَدْ عَمَدَ البَنكَ الأَهْلِي بِالمَدِينَةِ أَنْ إِذَا طَلَبَ الشَّيْخُ مِنْهُمْ أَيِّ مَبْلَغٍ يُعْطُونَهُ، فَلَمْ يَطْلُبْ، وَلَمْ يَأْخُذْ شَيْئًا إِطْلَاقًا!)^(٢).

٣- ارفع قدر العلم:

(اجتازَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَوْمًا بَعْضَ القُرَّاءِ عَلَى أَبْوَابِ السَّلَاطِينِ، فَقَالَ: أَفْرَحْتُمْ جِبَاهَكُمْ، وَفَرَطَحْتُمْ نَعَالَكُمْ، وَجِئْتُمْ بِالعِلْمِ تَحْمِلُونَهُ عَلَى رِقَابِكُمْ إِلَى أَبْوَابِهِمْ، فَزَهْدُوا فِيكُمْ، أَمَّا إِنَّكُمْ لَوْ جَلَسْتُمْ فِي بِيوتِكُمْ حَتَّى يَكُونُوا هُمُ الَّذِينَ يُرْسِلُونَ إِلَيْكُمْ، لَكَانَ أعْظَمَ لَكُمْ فِي أعْيُنِهِمْ،

(١) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص: ١٤٧).

(٢) ((ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي)) (ص: ٢٠٠، ٢٠١).

تَفَرَّقُوا، فَزَقَّ اللَّهُ بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ^(١).

قال عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ القاضِي:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النَّفْسِ لَعُظِّمًا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَتَّسُوا مُخَيَّاهَ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا^(٢)

٤- أَدِّ زَكَاةَ عِلْمِكَ:

قال الشيخُ بَكْرُ أبو زيدٍ: (أدِّ زكاةَ العلمِ: صادعًا بالحقِّ، أَمَارًا بالمعروفِ، هَمًّا عن المنكرِ موازنًا بينَ المصالحِ والمضارِّ، ناشرًا للعلمِ، وحبَّ النَّفْعِ وبذلِ الجاهِ، والشَّفاعةِ الحسنَةِ للمسلمينِ في نوائبِ الحقِّ والمعروفِ. وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))^(٣).

قال بعضُ أهلِ العلمِ: هذه الثَّلَاثُ لا تجتمعُ إِلَّا للعالمِ الباذلِ لعلِّمِهِ؛ فبذلهُ صَدَقَةٌ يَنْتَفَعُ بِهَا، والمتلقِّي لها ابنٌ للعالمِ في تعلُّمِهِ عليه. فاحرصْ على هذه الحليةِ فهي رأسُ ثمرةِ علمِكَ.

ولشرفِ العلمِ، فَإِنَّهُ يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ، وَيَنْقُصُ مَعَ الْإِسْفَاقِ، وَأَفْتُهُ الْكُتْمَانُ.

(١) ((شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم، من مجموع رسائل ابن رجب)) (١/٥٧-٥٨).

(٢) ((ديوان القاضي الجرجاني)) (ص: ١٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١).

ولا تحملك دعوى فساد الزمان، وغلبة الفساق، وضعف إفادة النصيحة عن واجب الأداء والبلاغ، فإن فعلت فهي فعلة يسوق عليها الفساق الذهب الأحمر؛ ليمم لهم الخروج على الفضيلة ورفع لواء الرذيلة^(١).

٥- وبعد.. فهل تنتهي المسيرة، وتتوقف الخطوات؟

(قال بعض أهل العلم: ينبغي للمرء أن يذخر أنواع العلوم... وأن يستكثر من العلوم، ولا يعتقد العنى عنها، فإنه إن استغنى عنها في حال احتاج إليها في حال؛ وإن سئمها في وقت ارتاح إليها في وقت؛ وإن شغل عنها في يوم فرغ لها في يوم؛ وأن لا يسرع ويعجل فيندم ويوجل؛ فربما عجل المرء على نفسه بإخراج كتاب عن يده، ثم رامه فتعذر عليه مرأته، وابتغى إليه وصولاً، فلم يجد إليه سبيلاً؛ فأتعبه ذلك وأنصبه، وأقلقه طويلاً وأرقه)^(٢).

قال أبو إسحاق: (إنَّ الكُتُبَ لا تُحْيِي الموتى، ولا تُحوِّلُ الأحمقَ عاقلاً، ولا البليدَ ذكياً، ولكنَّ الكتبَ تشحذُ وتفتقُ، وترهفُ وتُشفي، ومن أراد أن يعلم كلَّ شيءٍ فينبغي لأهله أن يداووه؛ فإنَّ ذلك إنما تصوَّرَ له بشيءٍ اعتراه!

فمن كان ذكياً حافظاً، فليقصد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمر على سمعه، وعلى بصره، وعلى ذهنه، ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواص، ويكون غير غفلٍ من سائر ما يجري فيه الناس، ويخوضون فيه)^(٣).

(١) ((حلية طالب العلم)) ل بكر أبو زيد (ص: ٥١).

(٢) ((تقييد العلم)) للخطيب البغدادي، بتصرف (ص: ١٣٦ - ١٣٧).

(٣) ((الحيوان)) للجاحظ (١/٥٩-٦٠).

قال سعيد بن جبيرة: (لا يزال الرجل عالماً ما تعلم، فإذا ترك التعلم، وظنَّ أنه قد استغنى واكتفى بما عنده، فهو أجهل ما يكون)^(١).

وقال ابن الجوزي: (أمَّا العالمُ فلا أقولُ له: اشبع من العلم، ولا اقتصر على بعضه. بل أقولُ له: قدِّم المهِّم؛ فإنَّ العاقلَ من قدَّر عمره وعمل بمقتضاه، وإن كان لا سبيلَ إلى العلمِ بمقدارِ العمرِ، غيرَ أنَّه يبني على الأغلبِ، فإن وصل فقد أعدَّ لكلِّ مرحلةٍ زادًا، وإن مات قبل الوصولِ فنيته تسلكُ به. فإذا علمَ العاقلُ أنَّ العمرَ قصيرٌ، وأنَّ العلمَ كثيرٌ، فقبیحُ بالعاقلِ الطالبِ لكمالِ الفضائلِ، أن يتشاغلَ مثلاً بسماعِ الحديثِ ونسخه، ليحصلَ كلَّ طريقٍ، وكلَّ روايةٍ، وكلَّ غريبٍ. وهذا لا يفرغُ من مقصوده منه في خمسينَ سنةً، خصوصًا إن تشاغَلَ بالنسخِ، ثم لا يحفظُ القرآنَ، أو يتشاغلَ بعلومِ القرآنِ ولا يعرفُ الحديثَ، أو بالخلافِ في الفقه، ولا يعرفُ التَّقلَ الذي عليه مدارُ المسألة)^(٢).

(وقال زُوْبَةُ بنُ العجاج: قال لي النَّسَّابَةُ البكريُّ: يا زُوْبَةُ، لعلَّكَ من قومٍ إن سكتُ عنهم لم يسألوني، وإن حدَّثتهم لم يفهموني؟ قلتُ: إيَّ أرجو ألا أكونَ كذلك، قال:

فَمَا آفَةُ الْعِلْمِ وَنَكَدُهُ وَهَجَّتُهُ؟ قلتُ: تُخْبِرُنِي! قال: آفَتُهُ النَّسيانُ، وَنَكَدُهُ الكَذِبُ، وَهَجَّتُهُ نَشْرُهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ)^(٣).

(١) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة (ص: ٢٨).

(٢) (صيد الخاطر) لابن الجوزي (ص: ١٦٨).

(٣) (العقد الفريد) لابن عبد ربه (٨٠/٢).

قال طاش كُبرى زاده: (قيل: مَنْ ظَنَّ أَنَّ لِلْعِلْمِ غَايَةً، فَقَدْ بَخَسَهُ حَقَّهُ؛
 أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى (لِحَبِيبِهِ) وَهُوَ أَعْرَفُ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ:
 {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
 عِلْمٌ} [يوسف: ٧٦]؟!)(^١).



(١) ((مفتاح السعادة ومصباح السيادة)) لطاش كبرى زاده (٢٣/١).

المصادر والمراجع

١. أبجد العلوم، لصديق حسن خان القنوجي، ط ١٣٠٧هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
٢. إبطال الحيل، لعبيد الله بن محمد العُكْبَرِي، المعروف بابن بَطَّة، تحقيق: زهير الشاويش، ط ٣، المكتب الإسلامي.
٣. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، لمحمد بن محمد الحسيني الزبيدي، ط ١، ١٤٠٩هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
٤. الإتيقان في علوم القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
٥. اتهامات لا تثبت، لسليمان بن صالح الخراشي، ط ١، ١٤٢٥هـ، مكتبة الرشد بالرياض.
٦. الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب علاء الدين علي بن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط ١، ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة بيروت.
٧. أخلاق العلماء، لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، اعتنى به: دكتور أحمد حاج محمد عثمان، ط ١، ١٤٢٦هـ، أضواء السلف بالرياض.
٨. آداب الشافعي ومناقبه، لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: عبدالغني عبد الخالق، ط ٢، ١٤١٣هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٩. الآداب الشرعية، لأبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيّام، ط ١، ١٤١٦هـ، مؤسسة الرسالة ببيروت.
١٠. أدب الدنيا والدين، لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي، ط ١، ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية ببيروت.
١١. الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، لأبي حفص عمر بن علي البزار، ط ٣، ١٤٠٠هـ، المكتب الإسلامي ببيروت.
١٢. اقتضاء العلم العمل، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط ٤، ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي ببيروت.
١٣. الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع لعياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار التراث / المكتبة العتيقة - القاهرة / تونس
١٤. إنباه الرواة على أنباء النحاة، لعلي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، ١٤٠٦هـ، دار الفكر العربي بالقاهرة - مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت.
١٥. أنماط التوثيق في المخطوط العربي في القرن التاسع عشر الهجري، للدكتور عابد سليمان المشوخي، ط ١٤١٤هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية بالسعودية.
١٦. بدائع الفوائد، لأبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق: معروف

زريق، ومحمد وهي، وعلي بلطه جي، ط ١، ١٤١٤هـ، دار الخير
بيروت.

١٧. بستان العارفين لمحيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار
الريان للتراث.

١٨. بستان العارفين، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد
الحجار، مكتبة دار الدعوة بحلب.

١٩. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لعبد الرحمن بن أبي بكر،
جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط المكتبة
العصرية - لبنان / صيدا.

٢٠. البلدانيات، للحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق: حسام
بن محمد القطان، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار العطاء بالسعودية.

٢١. بيان فضل علم السلف على علم الخلف، لعبد الرحمن بن رجب
الحنبلي، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، ط ١، ١٤١٦هـ، دار البشائر
الإسلامية ببيروت.

٢٢. البيان والتبين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: المحامي
فوزي عطوي، ط ١، ١٩٦٨م، دار صعب ببيروت.

٢٣. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لمحمد بن أحمد بن عثمان
الذهبي، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، ط ١، ١٤٠٧هـ، دار
الكتاب العربي ببيروت.

٢٤. تاريخ بغداد، لأبي بكر أحمد بن علي، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية بيروت.

٢٥. تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، ١٤١٦هـ، دار الفكر بيروت.

٢٦. التأصيل في طلب العلم، لمحمد عمر بازمول (محاضرة، مأخوذة من الشبكة العنكبوتية).

٢٧. تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لعلي بن الحسن بن عساكر الدمشقي، ط ٣، ١٤٠٤هـ، دار الكتاب العربي بيروت.

٢٨. التحبير في المعجم الكبير، لأبي سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني التميمي، تحقيق: منيرة ناجي سالم، ط ١، رئاسة ديوان الأوقاف ببغداد.

٢٩. تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل، لعبد الله بن عسيان، ط ١٤١٥هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية بالسعودية.

تحقيق: لجنة من العلماء، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية - لبنان / صيدا

٣٠. تذكرة الحفاظ، لمحمد بن أحمد الذهبي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣١. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لبدر الدين بن جماعة الكناني، دار الكتب العلمية ببيروت.
٣٢. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض بن موسى، تحقيق: سعيد بن أحمد أعراب، ١٤٠٢هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.
٣٣. التعالم وأثره على الفكر والكتاب، لبكر بن عبد الله أبو زيد، ط ١، ١٤١٨هـ، دار الراية بالرياض.
٣٤. تعليم المتعلم طريق التعلم، لبرهان الدين الزرنوجي، ط ١٣٠٧هـ، المطبعة العثمانية بمصر.
٣٥. تقييد العلم، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: يوسف العرش، ط ٢، ١٩٧٤هـ، دار إحياء السنة النبوية.
٣٦. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، مجموعة محققين، مطابع الشويخ - تطوان.
٣٧. تنوير الطلاب بتحرير أسباب العلم من كلام رب الأرباب، لأبي القاسم المقدسي (رسالة من الشبكة العنكبوتية).
٣٨. جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، ط ٤، ١٤١٩هـ، دار ابن الجوزي بالدمام.
٣٩. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، لأحمد بن علي الخطيب

البغدادي، تحقيق: محمد بن عجاج الخطيب، ط ١، ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة بيروت.

٤٠. جمهرة أنساب العرب، لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري

٤١. الجواهر المضية في طبقات الحنفية، لعبدالقادر بن محمد بن أبي الوفاء، تحقيق: عبدالفتاح بن محمد الحلو، ط ١٣٩٨هـ، دار العلوم بالرياض

٤٢. الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد، ليوسف بن الحسن بن عبدالهادي، تحقيق: عبد الرحمن بن عثيمين، ط ١، ١٤٠٧هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٤٣. الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ، لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، ط ١، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية بيروت.

٤٤. الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق: الدكتور مروان قباني، ط ١، ١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي.

٤٥. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني، دار الكتب العلمية بيروت.

٤٦. حلية طالب العلم، لبكر بن عبدالله أبو زيد، ط ١، ١٤٠٨هـ، دار الراية بالرياض.

٤٧. الحيوان، لعمر بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط ١٤١٦هـ، دار الجيل بيروت.
٤٨. ديوان القاضي الجرجاني، تحقيق: سميح إبراهيم صالح، الناشر: دار البشائر - دمشق، ط ١، ١٤٢٤هـ.
٤٩. الذيل على طبقات الحنابلة، لعبدالرحمن بن رجب الحنبلي، دار المعرفة بيروت.
٥٠. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لمحمد بن محمد بن عبدالمملك المراكشي، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة بيروت.
٥١. الرحلة في طلب الحديث، لأحمد بن علي البغدادي، (من مجموعة الرسائل الكمالية في الحديث) مكتبة المعارف بالطائف.
٥٢. الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي، ومحمود شكري الألوسي، جمع وتحقيق: محمد بن ناصر العجمي، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار البشائر الإسلامية بيروت.
٥٣. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت.
٥٤. زاد المعاد في هدي خير العباد، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، ط ١٣، ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة بيروت.

٥٥. زغل العلم للذهبي تحقيق محمد بن ناصر العجمي، الناشر: مكتبة الصحوة الإسلامية.
٥٦. سبل السلام شرح بلوغ المرام، لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، ط ٤، ١٣٧٩هـ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
٥٧. السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية، أحمد بن سالم المصري، ط ١، ١٤٢٦هـ، دار الكيان بالرياض.
٥٨. السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، محمد بن عبدالله بن حميد النجدي المكّي، تحقيق: بكر أبو زيد وعبدالرحمن العثيمين، ط ١، ١٤١٦هـ، مؤسسة الرسالة بيروت.
٥٩. سير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.
٦٠. شرح ديوان المتنبي، لعبد الرحمن البرقوقي، ط ٢، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي بيروت.
٦١. شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، لحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، تحقيق: عبد العزيز أحمد، ط ١، ١٣٨٣هـ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
٦٢. شرف أصحاب الحديث، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور: محمد سعيد خطيب أوغلي، دار إحياء السنة النبوية.

٦٣. صفة الصفوة، لأبي الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي، ط ٢، ١٣٩٩هـ، دار المعرفة ببيروت.

٦٤. صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لأحمد بن حمدان الحراني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط ٢، ١٣٩٤هـ، المكتب الإسلامي ببيروت.

٦٥. صفحات مشرقة في عبادات العلماء، للدكتور عبد الكريم الخضير (محاضرة).

٦٦. صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، لعبدالفتاح أبو غدة، ط ٣، ١٤١٣هـ، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

٦٧. صلاح الأمة في علو الهمة، لسيد حسين العفاني، ط ١، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة ببيروت.

٦٨. صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط، لابن الصلاح أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، تحقيق: موفق عبدالله عبدالقادر، ط ٢، ١٤٠٨هـ، دار الغرب الإسلامي ببيروت.

٦٩. صيد الخاطر، لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، المكتبة العلمية ببيروت.

٧٠. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي، دار مكتبة الحياة ببيروت.

٧١. الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، لجعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي، تحقيق: سعد محمد حسن - طه الحاجري، ١٩٦١م، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٧٢. طبقات الشافعية الكبرى، لعبد الوهاب بن علي السبكي (الابن)، تحقيق: الدكتور عبدالفتاح محمد الحلو - الدكتور محمود الطناحي، ط ١، ١٣٨٨هـ، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة.

٧٣. الطبقات الكبرى، لأبي عبدالله محمد بن سعد البصري، تحقيق: إحسان عباس، ط ١، ١٩٦٨م، دار صادر بيروت.

٧٤. طبقات الحنابلة، لمحمد بن محمد بن الفراء أبي يعلى، دار المعرفة بيروت.

٧٥. العقد الفريد لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.

٧٦. العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي، تحقيق: طلعت فؤاد الحلواني، ط ١، ١٤٢٢هـ، الفاروق الحديثة بالقاهرة.

٧٧. علل الحديث، لأبي محمد عبدالرحمن الرازي بن أبي حاتم، تحقيق: نشأت بن كمال المصري، ط ١، ١٤٢٣هـ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر بالقاهرة.

٧٨. عوائق الطلب، لعبد السلام بن برجس آل عبد الكريم، ط ١، ١٤٢٢هـ، مكتبة الرشد بالرياض.

٧٩. الفتاوى السعدية لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض
٨٠. الفروق في اللغة، لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق: جمال عبدالغني مدغمش، ط ١، ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة.
٨١. فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: مروان العطية - محسن خرابة - وفاء تقي الدين، ط ١٤٢٠هـ، دار ابن كثير.
٨٢. الفلاكة والمفلوكون، لأحمد بن علي الدلجي، ط ١، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
٨٣. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات، لعبدالحمي بن عبدالكبير الكتاني، ١٤٠٦هـ، دار الغرب الإسلامي بيروت.
٨٤. الفوائد، لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: بشير بن محمد عيون، ط ١، ١٤٠٧هـ، مكتبة دار البيان بالكويت .
٨٥. في سبيل الإصلاح، لعلي الطنطاوي، ط ٤، دار المنارة بالسعودية.
٨٦. الكتاب الإسلامي المعاصر - نظرات نقدية، لأحمد بن عبدالرحمن الصويان، ط ١، ١٤١٦هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض.
٨٧. كتاب العلم، لأبي خيشمة زهير بن حرب، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط ٢، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي بيروت.
٨٨. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبدالله حاجي خليفة، دار العلوم الحديثة بيروت.

٨٩. كيف يبني طالب العلم مكتبته، للدكتور عبد الكريم الخضير (محاضرة).

٩٠. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، ط ١، دار صادر.

٩١. اللطائف والظرائف لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، الناشر: دار المناهل، بيروت.

٩٢. لفظة الكبد إلى نصيحة الولد، لعبدالرحمن بن علي، ابن الجوزي، تحقيق: أشرف عبد المقصود، ط ١، ١٤١٢هـ، مكتبة البخاري بمصر.

٩٣. المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري، تحقيق: مشهور بن حسن، ط ١٩٤١هـ، جمعية التربية الإسلامية بالبحرين، ودار ابن حزم ببيروت.

٩٤. مجموع الفتاوى، لأبي العباس أحمد بن تيمية، جمع الشيخ عبدالرحمن بن قاسم، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، ط ٣، ١٤٢٦هـ، دار الوفاء.

٩٥. المجموع شرح المهذب، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الفكر.

٩٦. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، لعبدالرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: طلعت فؤاد الحلواني، ط ١، ١٤٢٣هـ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر بالقاهرة.

٩٧. المحاسن والأضداد، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ط ٢، ١٤١٥هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٩٨. المحاسن والمساوي، لإبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بالقاهرة.

٩٩. مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر بن الحجاج المروزي، اختصار: أحمد بن علي المقرئ، الناشر: حديث أكاديمي، فيصل آباد - باكستان
١٠٠. مختصر منهاج القاصدين، لأحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، تحقيق: علي حسن الحلبي، ط ١، ٤٠٦ هـ، دار فيحاء، ودار عمار بالأردن.

١٠١. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لشمس الدين محمد بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط ٢، ١٣٩٣ هـ، دار الكتاب العربي ببيروت.

١٠٢. المدخل إلى السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي بالكويت.

١٠٣. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لعبد القادر بن أحمد بن بدران، تحقيق: محمد أمين ضناوي، ط ١، ٤١٧ هـ، دار الكتب العلمية.
١٠٤. مزالق في التحقيق، لعبد الله الشمراني، (مقال من الشبكة العنكبوتية).

١٠٥. المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، عناية عبد السلام بن محمد علوش، ط ٢، ٤٢٧ هـ، دار المعرفة ببيروت.

١٠٦. المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية (مجد الدين عبد السلام بن تيمية، وعبد الحليم بن تيمية، وأحمد بن عبد الحليم)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي.

١٠٧. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد الفيومي، المطبعة الميمنية.

١٠٨. مطالع البدور في منازل السرور، لعلاء الدين علي بن عبدالله البهائي الغزولي، ط ١، ١٢٩٩هـ، مطبعة إدارة الوطن بمصر.

١٠٩. معجم الأدباء، لياقوت الحموي الرومي، تحقيق: إحسان عباس، ط ١، ١٩٩٣م، دار الغرب الإسلامي ببيروت.

١١٠. معجم شيوخ الذهبي، لمحمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: روحية عبدالرحمن السيوفي، ط ١، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية ببيروت.

١١١. مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زاده، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.

١١٢. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، ط ١، ١٤١٦هـ، دار ابن عفان بالخبر.

١١٣. مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر.

١١٤. من هدي السلف في طلب العلم، للدكتور محمد بن مطر الزهراني، ط ١، ١٤١٨هـ، دار ابن عفان بالخبر.

١١٥. مناقب أبي حنيفة للموفق المكي والحافظ الكردي - ١٤٠١هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.

١١٦. مناقب الإمام أحمد بن حنبل، لأبي الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط ٣، ١٤٠٢هـ، دار الآفاق الجديدة ببيروت.

١١٧. مناهج اللغويين في تقرير العقيدة، للدكتور محمد الشيخ عليو، ط ١، ١٤٢٧هـ، مكتبة دار المنهاج بالرياض.

١١٨. المنشور في القواعد، لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق الدكتور: تيسير فائق أحمد محمود، ط ٢، ١٤٠٥هـ، طباعة شركة دار الكويت للصحافة.

١١٩. الموافقات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، ط ١، ١٤١٧هـ، دار ابن عفان بالخبر.

١٢٠. الموجز في تراجم البلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، لمحمود بن محمد الطناحي، ط ١، ١٤٠٦هـ، مكتبة الخانجي بمصر.

١٢١. نزهة الألباب في الألقاب لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، ط ١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

١٢٢. نصائح منهجية لطالب علم السنة النبوية، للشريف حاتم بن عارف العوني، ط ١، ١٤١٨هـ، دار عالم الفوائد بمكة.

١٢٣. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقرئ،
١٤٠٨هـ، دار الفكر ببيروت.

١٢٤. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن
خلكان، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر ببيروت.



فهرس الموضوعات

٥مقدمة
٧ أولًا: إضاءات في فضل العلم وأهله
٧ ١- فضل العلم وشرف أهله
١١ ٢- حلاوة العلم ولذته
١٥ ثانيًا: إضاءات تربوية
١٥ ١- أخلص، تُخلص
١٧ ٢- التركيبة أولًا
١٩ ٣- صدق التوجه إلى الله
١٩ ٤- العمل بالعلم
٢٢ ❖ من علامات العلم النافع
٢٣ ٥- الأدب قبل الطلب
٢٤ ❖ من خلق الطالب وسمته
٢٥ ❖ من آداب طالب العلم
٢٧ ثالثًا: إضاءات في أول الطريق
٢٧ ١- ستُّ ركائز أساسية
٢٧ ٢- من سار على الدرب وصل
٢٨ ٣- التلقّي من أفواه العلماء
٣٠ ٤- انظر.. عمن تأخذ دينك؟
٣١ ٥- اتباع خير القرون
٣٣ ❖ طبقات العلم
٣٤ ٦- الزم قولًا.. ولا تشوش

- ٣٥ ٧- خطوة.. خطوة
- ٣٦ ❖ خذ بقدر ما تُطبق
- ٣٧ ٨- ابدأ بالأولى، فالأولى
- ٣٨ ٩- مراحل التعلّم
- ٣٩ ١٠- أدوات تحصيل العِلْم
- ٣٩ أ- السّماع والكتابة
- ٤٠ ❖ الكتب الجامعة للفوائد
- ٤١ ب- الحفظ
- ٤٣ ❖ للحفظ طريقتان، ولكلّ منهما مميّزاتها وعيوبها
- ٤٣ ❖ من الأسباب التي يُستعان بها على الحفظ
- ٤٥ ❖ سعة حفظ بعض العلماء
- ٤٨ ❖ الوسائل المعينة لطالب العلم
- ٤٩ ١١- الاهتمام بعلوم القرآن، وتفسير كلام الله تعالى بخاصّة
- ٥٣ ١٢- الاهتمام بعلم الحديث
- ٥٣ ❖ أهمية تعلّم علم الحديث
- ٥٥ - الحديث بين الرّواية والدّراية
- ٥٥ - الحديث بين حفظ الرّواية والرّعاية
- ٥٦ ١٣- الأدب مع المعلّم
- ٥٨ ❖ بم تكون القدوة؟
- ٥٩ رابعاً: إضاءات للثبات على الطريق
- ٥٩ ١- من عوائق طلب العلم
- ٥٩ ٢- احذر هذه الآفات
- ٥٩ - حُلْم اليقظة

- ٥٩ - ما يتسلى به المُفلسون من العلم
- ٦٠ - إذا ظفرت بوهمٍ لعالمٍ، فلا تفرخ به للحطّ منه
- ٦٠ - لا تجعل قلبك كالسفنجة
- ٦٠ - لا تكن حُنْفشاريًا
- ٦١ - تجنّب تتبع الرخص والأقوال الشاذة
- ٦٢ - ٣- كن عاليّ الهمة
- ٦٥ - ٤- تحلّ بالصبر وقوة التحمّل
- ٦٨ - ٥- احرص... كلّ الحرص، على العلم
- ٧١ - ٦- تعرّف على مرتبتك في العلم
- ٧٢ - ٧- عليك بالمداممة والاستمرار
- ٧٤ - ٨- ارحل في طلب العلم
- ٧٤ - ٩- لا تستكف عن الاستفادة ممن دونك
- ٧٧ - خامسًا: إضاءات حول الكتب
- ٧٧ - ١- أهميّة الكتاب
- ٨٠ - ٢- عشق عجيب للكتب
- ٨٨ - ❖ من الذين عنوا بجمع الكتب
- ٨٩ - ٣- شراء الكتب
- ٩١ - ❖ حول اختيار الطبعات
- ٩٢ - ٤- مصطلحات متعلّقة بعناوين الكتب
- ٩٣ - ٥- القراءة
- ٩٣ - ❖ الوصول للسرعة المناسبة في القراءة
- ٩٥ - ❖ أمور تساعد على القراءة
- ٩٦ - ❖ آفات القراءة

- ٩٦ ٦- مطالعةُ الكُتُبِ
- ١٠٠ ٧- إعارَةُ الكُتُبِ
- ١٠٠ ٨- التَّأدُّبُ مَعَ الكُتُبِ
- ١٠١ ٩- استعارَةُ الكُتُبِ
- ١٠٥ سادسًا: إضاءات على ورثة الأنبياء.....
- ١٠٥ ١- حقيقةُ العالمِ
- ١٠٦ ٢- من صفاتِ العلماءِ
- ١٠٦ أ- خشيةُ اللهِ
- ١٠٧ ب- شدة الانشغال بالعلم.....
- ١٠٨ ج- عمق الفهم.....
- ١٠٩ د- الانضباط في التعامل مع المخالف.....
- ١١٠ ٣- أحوالُ العلماءِ الرَّبَّائِيْنَ
- ١١١ ٤- من بيوتِ أهلِ العلمِ
- ١١١ ❖ آلُ قُدَّامَةَ.....
- ١١٣ ❖ الألوُسِّيُونُ.....
- ١١٤ ❖ العَمَّارِيُّونَ.....
- ١١٦ ٥- فائدة.....
- ١١٦ ❖ عقيدةُ بعضِ أئمَّةِ اللُّغَةِ.....
- ١١٩ سابعًا: إضاءات على أنواع العلوم.....
- ١١٩ ١- أنواعُ العلومِ.....
- ١١٩ ❖ من ناحيةِ النَّفْعِ.....
- ١٢٠ ❖ من ناحيةِ الغايةِ والوسيلةِ.....
- ١٢١ ٢- أهميةُ التَّخَصُّصِ فِي فِنِّ مُعَيَّنٍ.....

- ١٢٣ ثامناً: إضاءات على التصنيف والتحقق
- ١٢٣ ١- التصنيف
- ١٢٣ ❖ علوُّ الهمة في التصنيف
- ١٢٤ ❖ حول منهج التأليف
- ١٢٥ ❖ أغراض التأليف
- ١٢٦ ٢- تنبيهات ومحاذير تتعلق بالتحقق
- ١٢٦ ❖ مجافاة بعض كتب التراث المنشورة لمقتضيات التحقيق
- ١٢٧ ❖ الإحالة إلى الفرع دون الأصل
- ١٢٧ ❖ إثقال الكتب بالحواشي
- ١٢٨ ❖ المشاغبة في التعليق والتعقيب
- ١٢٨ ❖ عدم الاهتمام بمخطوطات الكتاب
- ١٢٩ ❖ عدم ثقة المحقق في عمله
- ١٢٩ ❖ المتاجرة بعناوين جديدة للكتب
- ١٣٠ ٣- أسباب إعادة تحقيق كتاب سبق تحقيقه
- ١٣١ ٤- من أئمة المحققين
- ١٣٥ تاسعاً: إضاءات على التعليم
- ١٣٥ ١- التعليم بين الأمس واليوم
- ١٣٦ ٢- آداب المعلم
- ١٣٦ ❖ توفُّر الأهلية
- ١٣٦ ❖ عدم القول على الله بلا علم
- ١٣٩ ❖ معرفة طرق التعليم
- ١٤٠ ❖ الاهتمام بأعمال القلوب
- ١٤١ ❖ معرفة كيفية طرح الشبه والإجابة عنها

- ١٤١ التوسُّط في التَّعليم ❖
- ١٤١ ومن آداب المعلِّم مع تلاميذه ❖
- ١٤٣ عاشراً: إضاءات في آخر الطَّرِيق
- ١٤٣ ١- كُنْ عالِماً ربَّانِيًّا
- ١٤٣ ٢- تجرَّد من الدُّنيا
- ١٤٥ ٣- ارفع قدر العلم
- ١٤٦ ٤- أدِّ زكاةَ علمِك
- ١٤٧ ٥- وبعد.. فهل تنتهي المسيرَةُ، وتتوقَّفُ الخطواتُ؟
- ١٥١ المصادر والمراجع
- ١٦٧ فهرس الموضوعات







تم الصف والإخراج في

مؤسسة الدرر السننية

nashr@dorar.net

هاتف: ٠٣٨٦٨٠١٢٣

فاكس: ٠٣٨٦٨٢٨٤٨

جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠